ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ١٠]

نصلُ معَ هاتين الآيتين أخي المؤمن، إلى المشهدِ الثاني من الحوارِ الذي يَجْرِي بينَ يعقوبَ عليه السلام، وبينَ أبنائه، الذين يجهدونَ في إقناعه بتسليمِهم يوسفَ عليه السلام، وقد أظهروا له خلافَ ما يُضْمِرون، فكانَ في جوابِه لهم إرساءٌ لقاعدتينِ مِنْ قواعدِ علمِ النفس. نستَخْلِصُهما على هَامِشِ القِصة، لِنَضُمّها إلى الكمِ الضخمِ من القواعدِ التي تزْخَرُ بها السورة.

يقولُ الله تعالى: **﴿قال إني ليحزُنَني أنْ تذهبوا به﴾**.

في هذا الشطْرِ من الآيةِ، لطائف عدة:

اللطيفة الأولى: أنها الإشارةُ الماديةُ الأولى الصريحةُ التي يَذْكُرُ فيها يعقوبُ عليه السلام، شِدَّةَ مَحَبَّتِه ليوسف عليه السلام، وهي عينُ المسألةِ التي ائتمَرُوا لأجْلِها، وكأنها الإشارةُ المادِّيةُ الدامغةُ التي تَدْفَعهُم دَفْعاً لتنفيذِ ما اعتزموا، مِنَ التخَلُّصِ من يوسفَ عليه السلام. وكثيرةٌ هي الوقائعُ التي تحْصُلُ في حياتنا الدنيا، التي تُطابقُ هذه الواقعةَ. ومُفَادُها: أنّ حدثاً مُعَيّناً بسيطاً يُضَافُ إلى احتقانٍ شديدٍ سبقه، يُؤدِّي إلى دَفْعٍ مُؤَكّد، لتنفيذِ خُطةٍ غير مؤكّدةِ التنفيذ، قَبْلَ حصولِ هذا الحَدَث. والأمثلةُ في التاريخِ الحديثِ كثيرة: كمَثَلِ السّبَبِ البسيطِ المُباشِرِ الذي أدَّى إلى اندلاعِ الحربِ العالميةِ الأُولى، أو الحادثةِ البسيطة، التي حصَلَتْ للسيدة المسلمة، على أيدي الروم، والتي أدّتْ إلى فتح عمّورية، وغيرِها كثير.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: ﴿**قال إني ليَحزُنُني**﴾.

ونتوقّفُ هنا قليلاً، عند مسألةِ الحُزْن: فالحزنُ شُعورٌ داخليٌ بالانزعاجِ، يُصيبُ النفسَ الإنسانية، عندما تَتَعرَّضُ لما لا يُرضيها، وهي بعضٌ مِنْ معالمِ النفسِ البشرية، التي شاءَها الله تعالى لعبادِه في الحياةِ الدنيا. ولا يوجدُ إنسانٌ على ظهرِ الأرض، لم يُعاين الحُزْن، وهو وإنْ كانَ غيرَ مرغوب، فإن وجودَه ضروريّ لتَفَهُّم معنَى الحبورِ والسعادة، لوجوبِ وجود الأضدادِ للمفاضلة، ولتهذيبِ النفسِ، وحَمْلِها على تجاوُزِ المشاقِّ والصِّعابِ، لإبعادِ الحُزْن، ولارتباطِه بمفهومِ الحسَن والسيء، وحضِّ الإنسانِ على القيام بالأفعالِ الصالحة، دَفْعاً للشعورِ بالحزن.

وإذا كان الحزنُ طبيعياً بمقدار وبمعزل عن نبي الله يعقوب عليه السلام فإنه قد يتحوّلُ إلى مَعْلَمٍ مرضِيٍ فيما لو تفاقم واستفْحَل، وإذا ما صارَ مُلازِماً للإنسان: ومِنَ الأمراضِ النفسية المستعصيةِ الكثيرةِ الانتشارِ في أيامِنا الحالية، ذاكَ المرض الذي توافَقَ العلماءُ على تسميته: الميلانكوليا، وأبرزُ سماتِهِ طُغيانُ الشعور بالحُزنِ على الإنسان، حتى السَوْدَاوِيّةِ المُطْلَقة، وصولاً إلى التفكير بالانتحار. وهذه مُعْضِلةٌ كبيرةٌ، ينبغي التنبُّهُ إليها باكراً، وعلاجُها يَحتاجُ إلى شيءٍ مِنَ الدواءِ، وكثيرٍ منَ الإيمان والثقةِ بالله تعالى، والفَهْمِ الصحيح لمعنى الوجودِ على وَجْهِ الأرض، وصحةِ التوكُّل وتَفَهُّمِ مَعْنَاهُ الفَهمَ الصحيح.

وبالعودة إلى سورة يوسف:

فما قول يعقوب عليه السلامُ في الآيةِ الكريمة: ﴿**إنه ليَحزُنني**﴾، إلا إشارةٌ إلى هذا الشعورِ الإنساني، الذي قَدْ يَنْجُمُ عَنْ فَقْدِ عزيزٍ، أو بعادِ حبيب، أو خسارةٍ في المال، أو فَوْتِ فُرْصَة، أو رسوبٍ في امتحان، أو ضياعِ مَنْصِب، أو حصولِ نائبة، وبالإجمال كلُّ ما يُخالِفُ النفسَ فيما تهْوَاه، وإذا جَاءَتِ الإشارةُ في الآيةِ الكريمةِ إلى الحزن، فعلينا أنْ نقِفَ عِنْدَها. ونعلمُ أنّ الله تعالى، إذ

أوجدَ لنا هذا الشعور، لكي نرتَقِي في الطاعةِ والعبادة. نَبَّهَنَا إلى مخاطرِ الاستسلام له، وهذا ما سنراهُ في اللاحقِ منَ الآيات.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: **﴿أنْ تَذْهَبُوا به﴾**.

فإذا تأمَّلْنا سُؤَالَهم في الآيةِ السابقة، حين قالوا: **﴿أرْسِلْه معنا غداً﴾**، ثم سَمِعْنا جوابَه في هذه الآية، قولُه: **﴿أنْ تذهبوا به﴾**، نُدْرِكُ أنّ هُناكَ لغتين منَ التخاطُبِ على وتيرتين مختلفتين جداً، بل متناقضتين:

فلقد اعتمد الأبناءُ صيغة اللِين والإقناع، حين استعملوا كلمة: **﴿أرْسِلْه﴾**. وهي تحملُ في طيَّاتها معاني الولايةِ على الطفل، ومعاني الرجاء والاستعطاف. ومعاني الخضوعِ والتلطُّف. وذلك بهدف الوصولِ إلى أخْذِ يوسفَ معهم.

أما يعقوبُ عليه السلام، فقد استعمل صِيغةً مختلفةً تماماً، وهو يقولُ لهم: **﴿أنْ تذْهَبُوا به﴾**، وكأنه يقول: أنْ تنتزِعُوه منِّي انتزاعاً، وهذه الصيغةُ تحملُ في طياتِها معاني انعدامِ الثقة، ومعاني الفقدِ والرفضِ، ومعاني الشكّ بصحةِ دَعْوَاهُم. فانْظُرْ أخي المؤمن، وتأمَّلْ دِقّةَ تعابير القرآن.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿وأخافُ أنْ يأْكُلَهُ الذِئبُ وأنتم عنه غافِلون﴾**.

في هذا الشطرِ من الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قول يعقوبَ عليه السلام: **﴿وأخافُ﴾**.

فبعدَ أنْ تطرَّقَ إلى مَفْهُومِ الحزن، أشارَ مباشرةً إلى العنصرِ الآخرِ منْ عناصر أحوالِ النفسِ الإنسانيةِ في الآية، ألا وهو عنصرُ الخَوْف. وبمعزل عن نبي الله يعقوب عليه السلام نتحدث عن الخوف: هو شعورٌ باللاطمأنينة، ينْتَابُ الإنسان عندَ تعرُّضِهِ لخطرٍ مُحْدقٍ أو مُحْتمل. أو عندَ حُصولِ الكوارثِ

والزَلازل، أو عندَ مواجهةِ العدوِ في الحروب، أو عِنْدَ اضطراب المُقَوِّماتِ الطبيعية الهادئةِ للحياة.

وقد غرَسَ الله تعالى الشعورَ بالخَوْفِ في نفوسِ العباد، كعاملٍ منْ عواملِ حفظِ الحياة. وعِظةً وتَذْكِرةً، وحضاً على اجتناب ما نهَى عنه الله تعالى، بعدما عَلِمُوا بالعِقاب. ولولا الشعورُ بالخوف، لهلَكَ أكْثرُ الناس استهانَةً بالمخاطرِ، وجَهْلاً بالنَوازِل، ولولا الخوفُ منَ النار، لعاثَ الإنسانُ في الأرض فساداً وإهلاكاً. فتلكَ رحمةٌ نحْمَدُ الله تعالى عليها.

وكما الحزنُ، فإنّ الخوفَ طبيعيٌ بمقدار، فإذا ما زادَ عنْ مِقدارِه تحوَّلَ إلى حالةٍ مرضيةٍ خطيرةٍ جداً، يَصْعُبُ علاجُها، وتتشعَّبُ أعراضُها، تقومُ أساساً على أوهامٍ وَوَساوِسَ لا تَلِيقُ بالعاقل. يُصبحُ المريضُ فيها أسيراً مُكبّلاً، يعيشُ في عالمٍ هوائيٍ خيالي، يَغْلِبُ عليه الخوفُ في كل حالِه، ويتحوَّلُ الخوفُ إلى رُعْبٍ في أحوالٍ مَخْصوصة، قدْ تكُونُ بمناسبةٍ مادِّيَّةٍ، أو بفعلِ تطوُّرِ الفِكْرِ لديه، إلى حَدِّ الجمود والتقوقع، مع أعراضٍ جسمانيةٍ، كضيقِ النَّفسِ، وازديادِ النبْض، والشعورِ بالاختناقِ وتنميل الأطراف، وتلاشي القُوَى.

وهذه الحالُ تحتاجُ إلى معالجةٍ أعمقَ وأدَقّ مِنْ مشكلةِ الحزن، بما فيها العلاجُ الدوائي، والعلاجُ النفسي، وإصلاحُ العلاقةِ مع الله تعالى، حتى الوصولِ إلى الشعورِ برضى الله تعالى، عَنْ صلاحِ النيةِ، وصلاحِ العمل.. نسألُ الله تعالى العفو والعافيةَ والمعافاةَ الدائمة، والحفظَ والصَوْنَ آمين.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿وأخافُ أنْ يأْكُلَهُ الذئب﴾** ولقد يُصيبنا العَجب، حين لا نسْمعُ منْ يعقوبَ عليه السلام، إلا احتمالاً واحداً في نوعِ الأذِيّةِ التي قد يتعرَّضُ لها يوسفُ عليه السلام، والمخاطرُ عديدةٌ متنوعةٌ في العراء، كمِثلِ السَّقوطِ منْ عُلُو، أو الضّياع، أو أنْ يُخْطَفَ مِنْ قِبلِ مجهولين. وهو الحسنُ الوجه، الصّبوحُ الخِلْقة.

لقد أجرى الله تعالى على لسان يعقوب هذا الكلام لأمر شاءه الله تعالى، تحضيراً لطمأنته عن حال يوسف لاحقاً ذاك أن لاحق قولهم بأنه أكله الذئب إشارةٌ ضمنيةٌ أنه لم يأكلْه، وهو ما ستراه فيما بعد إن شاء الله.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: **﴿وأنتم عنه غافلون﴾**.

لقد سَمِعْنا في الآيةِ السابقة، كيف أنّ إخوة يوسف قالوا لأبيهم: **﴿وإنا له لناصحون﴾** ثم قالوا: **﴿وإنا له لحافظون﴾**، فإذا به يُجيبهم في هذه الآية: **﴿وأنتم عنه غافلون﴾**.

وبذلك نجِدُ استمرارَ تبايُنِ الصِّيغِ وإيحاءاتهما، بينَ توَجُّهِ مضمونِ كلام إخوةِ يوسفَ في كلامِهم بالإغراءِ واللين، وتوجُّهِ مضمونِ كلامِ يعقوبَ عليه السلام، في ردِّه بالشَكِّ والتحفُّظ.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿قالوا لئِنْ أكَلَهُ الذِّئبُ ونَحنُ عُصْبةٌ إنّا إذاً لخاسرون﴾**

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: هي في مُلاحظتنا أنهم تجاهَلُوا الإجابة عن الشِقِّ الأولِ في كلامِ أبيهم، حينَ قال: **﴿إني ليَحزُنُني أنْ تَذْهَبوا به﴾** والواقعُ أنهم لا يَمْلِكُونَ جواباً، ذاك أنّ الإئتمارَ كُلَّه حاصلٌ بسببِ حُبِّ يعقوب ليوسف، وأيُّ جوابٍ منهم يكونُ إدانةً لهم، وهم يجْهَدُونَ بكلّ وسائِلهم في إقناعِ يعقوبَ لتسليم يوسف عليه السلام، فإذا بهم يغْرَقُونَ في كَذِبِهِمُ الذي يَزْدَادُ تعقيداً مع كُلِّ مرحلةٍ مِنْ مراحلِ الحوار: فيقْبَلُون مُسبقاً أنْ يقالَ عنهم: إنهم خاسرون وهُمْ يتأكّدون باليقينِ القَطْعِيِّ أنه سيُقال عنهم ذلك، لعِلَّةِ ما اعتزمُوه، بل يقْبَلُونَ بالصَّغَار مع ما قدْ يتَضمَّنُ ذلك مِنْ آثارٍ ومُضاعَفاتٍ على وضْعِهم مِنْ إذلال.

اللطيفة الثانية: في تصاعُدِ الموقفِ حتى الذُّروة، وقد قارَبَ الحديثُ مع

أبيهم على الانتهاء، وهم يرغبونَ في الوصولِ إلى النتيجةِ المنشودة، فإذا بهم يرْمُونَ بثقلِهم في الإقناع، ويضَعُونَ كرامتَهم وعِزَّتَهُمْ وقُوَّتهم في الميزان، ويَقْبَلُون التحدِّي الصارخَ، ويَخْلُصونَ في النتيجةِ إلى القول: ﴿**ونحن عُصبةٌ إنّا إذاً لخاسرون**﴾.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِ الحالِ التي وصَلُوا إليها وقت الاحتقانِ الشديد عندَ الإلحاح في الطّلب، لنَسْتَخْلِصَ منها العِبرةَ النفسيةَ التالية: إنها تغشى العيون والبصائر عندما نجِدُّ في طلب أمرٍ ويعسر علينا الوصولُ إليه، ونصبح في موقعِ ضَعفٍ يسْهُلُ علينا معَه التنازُلُ عَنْ أشياءَ يَعِزُّ علينا التنازُلُ عنها في الأحوالِ العادية.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - لتفحص صدق المخاطب وذلك بإيراد معلومة لم تكن في أساس خطابه، فإذا تلقفها ونسج على منوالها، فتلك إشارة يفهم منها حرصه على الإقناع للوصول إلى مبتغاه، مما يستوجب الحيطة والحذر معه.

٢ - للدلالة على وجوب مناقشة صاحب الطلب في مطلبه حتى وإن كان من أقرب المقربين، وعدم التسليم الطوعي الفوري لمطلبه.

ثم يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ١١]

تنتقلُ بنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، إلى مشْهدٍ جديدٍ منْ مشاهدِ قِصّةِ يوسفَ

عليه السلام، بَعْدَما أرْخَتِ الآية السابقةُ السِتارَ على مشْهَد الحِوارِ الذي جَرَى بينَ يعقوبَ عليه السلام، وأبنائِه المُؤْتمِرينَ بأخيهم يوسف، يُريدون التخلُّصَ منه، وقد استعملوا كلّ وسائِلِ الترغِيب والإقناع، وما وفَّرُوا الكَذِبَ والتحدِّي، وقَبِلُوا على أنفسِهم الذُّلَّ والصَّغَار حتى يسْلُخُوه عَنْ أبيه. ويَنْتَهي المشهدُ دونَ أنْ نسْتَبِينَ حصِيلةَ الحوار، وها هي ذِي الآيةُ موضوع التأملِ اليوم، تأتينا بما غُمَّ علينا، وتَحْمِلُنا إلى موقعٍ جديدٍ، ومنحىً جديدٍ في حياةِ يوسفَ عليه السلام، ومشيئةُ الله تعالى نَافِذَةٌ في كُلِّ حركةٍ أو سَكَنَة، لكنَّ أكْثَر الناسِ لا يَعْلَمُون.

يقولُ الله تعالى: **﴿فلمّا ذَهَبُوا به وأجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوه في غَيابةِ الجُبِّ﴾**

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قولِه تعالى: **﴿فلمّا ذَهَبُوا به﴾** هذه الكلماتُ الوجيزة تقول أشياءَ كثيرة:

فنعرِفُ أولاً أنّ يعقوبَ عليه السلام، نزَلَ عندَ إلحاحِهم وسلّمَهُمْ يوسف، ويقولُ المفسرون: إنه أخَذَ عليهم المواثيق الغَليظة بالاهتمامِ به، فأظهروا له مَحَبَّتَهُم ليوسف، وحَمَلُوه على أعناقِهم يتَنَاوَبُونَهُ، ما داموا تحتَ أنظارِ أبيهم، فلمّا ابتعدوا أعْمَلُوا فيه لَمْزاً وشَدّاً وضَرْباً، تشَفِّياً وحِقْداً.

ونعرِفُ أنّ يوسفَ في حالِه هذه، مغلوبٌ على أمرِه؛ يكْفِي أنْ نتأمَّلُ الصيغةَ في قولِه تعالى: **﴿فلمّا ذَهَبُوا به﴾**، حتى نُدْرِكَ أنهم لم يَذْهَبُوا معه، ولم يصْطَحِبُوه، ولم يُرافِقُوه، بل أخَذُوه أخْذاً قسرِيّاً، بَعْدَ جهودٍ كثيفة، وكَذِبٍ كثير.

ونَعْرِفُ أنّ علينا أنْ نَنْتَظِر حَدَثاً بعدَ الذّهابِ به، لِوُرودِ الآيةِ بصيغةِ تعليق الذّهابِ على نتيجةٍ لاحقة. مما يشُدُّ المستمع لمتابعةِ أحداثِ المشهد.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: ﴿**وأجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوه في غيابَةِ الجُبّ**﴾: لقد اقْتَرَح أحدُهم في بدايةِ السُّورة، أَنْ يتَخَلَّصُوا منه، بأَنْ يضَعُوهُ في غيابَةِ الجب، يَلْتَقِطَه بعض السيارة. ولم نسْمَعْ جوابَهم على اقتراحِه، ثم دَارَتْ أحداثُ القِصَّة، حتى حصَلَ لهم ما أَرَادُوا منْ أخذِ يوسفَ مِنْ أبيه، وها نحنُ الآن نَعْلَمُ أنَّهم وافقوه على اقتراحِه، ليستْ موافقةَ أكثريةٍ، بلْ موافقةُ إجماع: عشَرَة إخوةٍ يُجْمِعون على إلقاء أخيهم في الجُبِّ ليتَخَلَّصُوا منه. إنها الغرابةُ في الإجماع، وما كانَ ليَحْصُلَ لولا اشتدادُ كُرْهِهِم ليوسف، وغَلَبَةُ الشيطانِ عليهم، وهذه الواقعةُ تُنبِّهُنا إلى أَن احتمال الإجماعِ على الشرِّ وارد، وأنّ الظنَّ الحسن في زُمْرَةٍ منَ العُصاةِ إنْ كثرُوا، ليس واقعياً في أغلبِ الأحيان، مما يؤيِّدُ المبدأ القائل: المجتمعون على الحقّ بعضُهم يُقَوِّي بعضاً، ويُصَوِّبُ قناتهم. والمجتمعون على الباطل، بَعْضُهُم يمحو لمحاتِ الصَّواب من بعض، ويطْمِسُ على قلوبهم.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: ﴿**أنْ يَجْعَلُوه في غيابَةِ الجُب**﴾: الله تعالى هو الذي يُخاطِبنا في هذه الآية، مُخْبِراً عَنْ قرارِ إخوةِ يوسف. ولو عُدْنا إلى الآية العاشرةِ من السُّورة، لَسَمِعْنَا أحدَ المؤتمرين يقول: ﴿**وألْقُوهُ في غيابةِ الجب**﴾ فانظرْ أخي المؤمن إلى اختلاف الصِّيغ: الأخُ الحاقد، يستَعْمِلُ عبارة ألقُوه تعبيراً عمّا في نفسِه مِنَ الكُره ليوسف، والله تعالى يقولَ عن الفعل نفسه: أنْ يَجْعَلُوه، إعلاماً لنا عَنْ حُبِّه ليوسفَ، وتلكَ دقّةٌ فريدةٌ في تعابير القرآنِ الكريم، أنّى لنا أنْ نُدَانِيها.

اللطيفة الرابعة: في هذا الشطرِ منَ الآية، تُنبِّهُنا إلى حالِ يوسفَ عليه السلام، حين إنزالِهِ في الجُبّ، حيثُ الرُّطُوبةُ والوَحْشَةُ، والوَحْدَةُ والهَوام، والانقطاعُ عن الدنيا، حيثُ هو من الموتِ أقرب، وحيث يتضَاعَفُ الشعورُ بالخوفِ لدى الطِّفْلِ الصغير: إنّ الطِّفْل الصغير لو وُضِعَ في قَصْرٍ مُذَهَّبٍ مُدَفَّأ

مُنَارٍ، ونُسِيَ وحيداً، لأصَابَهُ الهَلَعُ، فكيفَ إذا وُضِعَ في جُبٍّ ضيِّقٍ باردٍ مُظْلِمٍ عميقٍ مُوْحشٍ؟

لم يَكْفِهِمْ هذا، بَلْ نَزَعُوا عنه قَمِيْصه، وأنْزَلُوه عارياً، لِيَزْدَاد شقَاؤه شقاءً، بلا شَفَقَةٍ ولا رَحْمَة، وذلك لضروراتِ اكتمالِ عناصرِ كذبِهِم على ما سنَرَاهُ لاحِقاً، فأيُّ إنسانٍ في مثل عُمْرِ يوسفَ عليه السلام، وفي مثلِ الوضعِ الذي تُرِكَ فيه، تَبْقَى لديه رباطَةُ جأْشٍ، وأملٌ في الخَلاص، وسَكِينَةٌ في القلب؟

الجوابُ يأتِينا مُبَاشَرة:

يقولُ الله تعالى: **﴿وأوْحَيْنَا إليه لتُنَبِّئَنَّهُمْ بأمْرِهم هذا وهُمْ لا يشْعُرون﴾**.

في هذا الشطرِ الأخيرِ منَ الآية، لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في إلقاء السكينةِ في قَلْبِ يوسفَ عليه السلام، في أدَقِّ المواقفِ وأصْعَبِها، وذلك بإعطائه الإشارةَ بأنّ الله تعالَى معه. هنا يتبَدَّلُ الموقفُ تماماً: فلم يَعُدْ يوسفُ ذلكَ القَلِقَ الخائفَ الوَجِلَ الذي يتحَكّمُ بمصيره أولئك الذين أصابَهُمْ الجهَل والغُرور، الناظرون إليه عندَ فُوهَةِ البئرِ بصَلَفٍ وشماتَة؛ بل هو المُطْمئنُّ في حِمَى الرحمن مثلُهُ في ذلكَ كمَثَلِ إبراهيمَ عليه السلام؛ ساعة أُلْقِيَ في النارِ المتأجِّجَة، ومَثَلُهُ في ذلكَ كمَثَلِ رسولِ الله محمدٍ عليه أفضلُ الصلاةِ وأتمُّ التسليمُ في الغار، يومَ الهجرة، وقد كادَ المشركون يطالونَه، فأنزلَ الله تعالى سَكِينَتُهُ على قَلْبِه، وأيّدَهُ بنصرٍ منه.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿وأوْحَيْنَا إليه﴾**.

إنه التلقينُ والتعليمُ الرّبّاني يبْدأُ بالوصول إليه عن طريق الإلهامِ ولا عِبرَة لِهَوْلِ الموقفِ الذي هو فيه، فما هذا إلا حساب العِبادِ في تقديرِهم لأحوالِ دُنياهُم، والله تعالى مُتِمُّ أمرِه ومُمْضٍ لِحُكْمِه.

ومِنْ قولِ الله تعالى: ﴿وأوحينا إليه﴾، نَعْلَمُ أنَّ يوسفَ عليه السلام، وصَلَتْهُ الإشاراتُ التالية:

فهو إعلامٌ مِنَ الله تعالى باستمرارِ الحياةِ عنده، رُغْمَ كُلِّ الظواهر المحيطة التي تُشيرُ إلى قُرْبِ انتهائها.

وهو تطمين بأنه سيخرجُ منَ المحنةِ سريعاً.

وهو إيذانٌ منَ الله تعالى، بأنه الآن بدأ مُهِمّتَهُ السامية في الحياةِ الدنيا، على نهج الأنبياء والمرسلينَ المصْطَفَيْنَ الأخيار، للإصلاح في الأرض.

وهو ارتفاعٌ سريعٌ به عَنْ واقِعه المُعاش، منْ بيئته الصغيرةِ المتمثلة باحتضانِ أبيه له، وحسَد إخوته وبُغْضِهم إلى عَالَمٍ واسعٍ جداً، عالمٍ نُوراني من الرعايةِ الإلهية، والارتفاع فوقَ الهُمومِ البسيطة الصغيرة، إلى همومِ البشر عامة: وحَمْلِ رايةِ إصلاحِ الناس كافة: هو الانعتاقُ منَ الاهتمامِ الضيِّقِ بشَخْصِه، إلى الاهتمامِ بنجاة الأُمم كافة؛ وما تِلك بالمهمةِ السَهْلَة، ولا يقْدِرُ عليها إلا من اصطفى الله تعالى.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: ﴿لتُنَبِّئَنَّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾. إعلامٌ غيبي من الله تعالى ليوسف عليه السلام، زاخرٌ بالمعاني، غنيٌ بالإشارات، تستوقفنا فنفهم منها ما يلي:

➢لقد أعلمَ الله تعالى نبيَّهُ أنه سيعودُ ليلتقي بإخوتهِ لاحقاً، ممّا يشيرُ إلى أن دورة الحياة مهما ذَهَبَتْ به بعيداً، فإنه سيلتئِمُ شَمْلُ عائلتِه من جديد، مما يُهَدِّىء نفسَه، وهو في أشدِّ أوقات مِحْنَته.

➢وفيه إعلامٌ بأنه حينَ يجتمعُ بهم مجدداً، يكونُ قدْ مَرَّ وقتٌ طويل، تتغيَّرُ خِلالَهُ ملامِحه، فيكون قد أصبح رجلاً، يعرفُهم ولا يعْرِفُونَه، يختارُ هو الوقتَ والمناسبة لتعريفِهم بنفسِه.

➢وفيه إعلامٌ بأنه حينَ يجتمعُ بهم مجدداً، تكون له الغَلَبة في الموقِف، فيكونُ هو الطرف القَوِيّ، ويكونونَ هُم في مَوْقِع الضَّعْف، ونستشعرُ الإمدادَ بالقوةِ مِنْ قولِه تعالى: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ﴾، ففيها التوكيدُ على حصولِ اللقاء، وفيها التوكيدُ على العُلُوِّ ساعةَ اللقاء.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على إمكانية إجماع مجموعة كاملة على الباطل، بعضها يقوي بعضاً حتى تعزم على تنفيذ ما أجمعت عليه وتقوم فعلاً بتنفيذه.

٢ - للدلالة على اجتماع الرحمة الإلهية بعباده مع حال الإحصار الظاهري الذي يلاقونه وقت الشدة، تطميناً للناس بأن الله تعالى معهم حتى وإن اشتدت عليهم الأزمات.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ١٢]

تنقلُنا هاتانِ الآيتانِ، أخي المؤمن، مُجَدَّداً إلى مشهدٍ آخرَ من مشاهدِ قصةِ يوسفَ عليه السلام، دونَ أنْ تنتهي الآياتُ السابقاتُ بتفصيلٍ لما حَدَثَ بعدَ إجماع الإخوةِ على إلقاء يوسفَ في غيابَةَ الجُبّ. وقد عهدْنَا هذا الأسلوبَ في الانتقالِ مِنْ مشهدٍ إلى آخر، في الآياتِ السابقة، مما يتركُ للمستمعِ حيِّزاً في التفاعُلِ الإيجابي معَ أحداثِ القصة، فلا يكون مجالٌ لِلْمَلَلِ من السردِ الطويل، ولا تراخٍ مِنْ أثرِ التبسيط. وذاك هو المحركُ لمتابعةِ سيرِ أحداثِ القِصة معَ المشاركةِ الشخصية.

يقولُ الله تعالى: ﴿وجاؤُوا أباهم عِشَاءً يَبْكُون﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في التوقيت الزمني، في قولِه تعالى: ﴿عِشاء﴾ تدليلٌ على إحكامِهم خُطة إبلاغِهمُ الخبر الصاعق على والدِهم. وللكَذِبِ عناصرُ مركَّبةٌ نذكّر منها:

أولاً: تحضيرُ الجوِّ الملائم الذي يتماشَى مع إطلاقِ الكَذِبِ ليكون أقربَ إلى التصديق.

ثانياً: إنتقاءُ الوقتِ الملائمِ الذي يُساعِدُ على تغطيةِ أحوالِ الكَذِب.

ثالثاً: القيامُ بأَفعالٍ تحضيريةٍ تُهَيِّىء المتلقي لوقع الخبرِ عليه.

رابعاً: التنفيذُ القوليُّ، وذلك بسَرْدِ الخبر.

خامساً: التدليلُ على صحةِ القولِ الكَذبِ بأفعَالٍ حسيةٍ وأدلّةٍ ملموسة.

ولقد عَمَدَ إخوةُ يوسفَ إلى الأخذِ بهذه العناصِر جميعاً:

فأقْبَلُوا على أبيهم مجتمعين. وهذا مِصْدَاق قولِه تعالى: ﴿وجاؤوا﴾ مما يُشْبِهُ التحضير، لنقلِ خبرٍ هامٍ يستلْزِمُ حضورَهم جميعاً.

ثم إنهم اختاروا وقْتَ العشاءِ، فيكونُ الظَلامُ قد ساد مما يُساعِدُهم على إخفاءِ تعابيرِ وجوهِهم، فلا تفْضَحُهُمْ فراسَةُ أَبيهم.

ثم إنهم جاؤُوا يَبْكُونَ، وهو العُنصرُ الثالثُ من عناصرِ اكتمالِ الكَذِب، وهم لغايةِ هذه اللحظة، لم يتَكَلّمُوا بكلمة، وما العناصرُ الثلاثةُ السابقةُ إلا حشداً للحالِ النفسيةِ لأبيهم، لِحَمْلِه على تصديقِ ما سيقُولون.

اللطيفة الثانية: في هذه الآية، في الوقوفِ عندَ كلمةِ ﴿يبكون﴾.

فالبكاءُ تعبيرٌ عَنْ حالةٍ نفسيةٍ يتواجَدُ فيها المرءُ، تجِدُ ترجَمتهَا إلى العَلَن، عَبْرَ ذَرْفِ الدموعِ من العيون، وتغيُّرٍ في تعابيرِ الوجه، نتيجة تقَلُّصِ عضلِيٍّ مُصَاحِب، يُرافِقُها أحياناً، تُقْطَعُ في الزَّفير. ويكونُ البكاءُ غالباً للتعبيرِ عنِ الأَلَمِ أو الحزن، وأحياناً للتعبيرِ عنِ الفرح.

والبكاءُ على درجات:

فهناكَ البكاءُ الصامت: وهو الذي لا يُعَبَّرُ عنه إلا بذَرفِ الدموع، وغالباً ما يُعَبِّرُ عنْ ألمٍ دفينٍ لدى أصحابِ الشخصياتِ القوية.

وهناك البكاء المصحوبُ بالصوت: وهو أكثرُ أنواع البكاءِ شيوعاً، يتِمُّ خلالَه إعمالُ كُلِّ عناصرِ التعبيرِ بصورةٍ لا إرادية، من ذَرْفِ الدموع، إلى استثارة العَصَب الدِّماغِيِّ السابع إلى تحريكِ عضلاتِ الحِجابِ الحاجز، والقَصَباتِ الهوائية.

وهناك البكاءُ التنهيديُّ: الذي يَغْلِبُ عليه الانقباضُ العضَلِيُّ حالَ الزفير، وهو الأكثرُ ظُهوراً لدى الأطفال.

وهناك البكاءُ التعبيري: الذي يسْتَحْضِرُ مِنْ خلالِه المرءُ حالاً نفسيةً توْصِلُه في النهايةِ إلى إعمالِ دَوْرَةِ البكاءِ التقليدية، وذلك بطريقةِ الاستثارة الإرادِيَّةِ لوظيفةٍ لا إرادية.

وهناك النّحيب: وهو البكاءُ الذي يَغْلِبُ عليه عُنْصر الصوت، فيَظْهَرُ إلى العلنِ بصورةِ أنينٍ أساساً، يصْحَبُه البكاء.

وهناكَ العويل: وهو خُروجٌ كاملٌ عنِ الطّور، معَ تنشيطٍ للجملِ العضلِيةِ الكُبرى، مِنْ يدينِ وذِراعينِ وساقين، وجهرٌ شديدٌ بالصوتِ .

وهناك البكاءُ الكاذِب: وهذا هو حالُ إخوةِ يوسفَ في الآيةِ الكريمة، والذي

يَهْدِفُ إلى مُحاولةِ إقناعِ المستمع أنه في حُزْنٍ ولوعة، ولقد يجتهدُ الباكي فتسعفه العينُ بالدمع. وقد لا تُسْعِفُه، فيجتهدُ بتعابيرِ الوجهِ، وما يتأتى معه مِنْ أصوات.

ولقد عَكَفَ العلماءُ على دراسةِ مسألةِ البكاء، واكتشفوا حديثاً جداً، أنّ شُعلة البكاءِ تنْطَلِقُ إثْرَ إفرازِ مادةٍ في الجسمِ، تُسَمَّى اللاكريمالين، التي فيما لو حُقِنَتْ في دمِ إنسانٍ مُبْتَهِجٍ، لصارَ في حالةِ بكاءٍ وذَرْفِ دُموع، فسبحان الله القائل: ﴿**وأَنه هو أَضْحَك وأَبكى**﴾[1] صدق الله العظيم.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**قالُوا يا أبانا إنّا ذَهَبْنَا نسْتَبِقُ وتركْنا يُوسفَ عندَ متاعِنا فأَكَلَهُ الذِئْب**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة.

اللطيفة الأولى: في جماليّةِ التعبيرِ القرآنيِّ، في تدرجِ وصْفِ إخوةِ يوسفَ لقِصَّتِهِم التي نسجَها خَيالُهم، وقد جَعلُوها على ثلاث مراحل.

الأولى: في قولِهم: ﴿**إنا ذَهَبْنا نسْتَبِقُ**﴾، وقد كانَ وعدُهم لأبيهم أنهم لن يُفَرِّطُوا بيوسف، وأنهم أخذوه ليلعب معَهم ويرتع.

الثانية: في قولِهم: ﴿**وتركنا يوسفَ عندَ متاعِنا**﴾ وقد كانَ وعدُهم لأبيهم أنهم لن يتركوه ويذْهَبُوا، وأنهم له حافظون.

الثالثة: في قولِهم: ﴿**فأكَلَهُ الذِئب**﴾ وقد سبَقَ لهم واستهجنوا فرضية أكل الذئب له بقولِهم: ﴿**لئِنْ أكَلَهُ الذِئبُ ونحن عُصْبَةٌ إنّا إذاً لخاسرون**﴾.

فانظُرْ أخي المؤمن، إلى دِقّةِ تعابيرِ القرآنِ في المقابلةِ بينَ الآيات، ولو تباعَدَتْ، وإلى التناسُقِ والتّنَاغُمِ فيما بينها.

---

(١) [سورة النجم، الآية: ٤٣].

اللطيفة الثانية: في الإيجازِ البيانيِّ في هذا الشطرِ منَ الآية، فهي على اقتضابها، تَخْتَصِرُ شرحاً وتفصيلاً يعْلُو عليه القرآن، ولو اجتهد أيُّ واحدٍ منا في إيصالِ هذه الفِكرة إلى أبي يوسفَ، ببضع كلماتٍ، لأعْسَرَ عليه ذلك، وهذا مِنْ إعجازِ القرآنِ في الإيجاز.

اللطيفة الثالثة: في التأمُّلِ في معنى الكلامِ المُسَاقِ على لسانِ إخوةِ يوسف، فليسَ فيه شيء مُشَرف، وينطبقُ عليه قولُ المثل: عُذرٌ أقبحُ منْ ذَنْب، فأيُّ عاقلٍ يقْطَعُ على نفسِه المواثيقَ بحفْظِ طِفْلٍ ضعيفٍ، ثم يتركُه بعدَ ذلك مباشرةً في فلاةٍ مُوْحِشَة، يَعْرِفُ أنَّ فيها الذئابَ والوحوشَ الكاسِرة، ويبتعدُ عنه ويتركُه دونَ حماية. النتيجةُ المباشِرةُ الأقربُ للحصولِ، هي أنْ تَفترِسَهُ الوحوش، وهو ما تعَارَفَ عليه الناسُ بتسميةِ القتلِ غيرِ العَمْد، بسبب الإهمال. وقد اعترفوا بذلك بألسنتهم. فألصَقُوا بأنفسهم طائعين هذا الوصفَ الجنائي.

وإذا نَظَرْنا إلى واقعِ حالِهِمُ الذي يُحاوِلُون إخفاءَه: فهم أَلْقَوْا أَخَاهُمْ في الجُبِ، عسَى أنْ يَلْتَقِطَهُ بعضُ السيّارة، معَ احتمالِ عدمِ مرورِ السيارة، فيموتُ في البئر. فلئِنْ حصَل، فيكونُ الوصفُ الجِنائي: التسبب بالقتل غير المباشر، فنراهُمْ قد عَادُوا بعدَ كَذِبِهم ليصطفُّوا في ذات الطبقة من أصناف الجُرْم. فتأمَّلْ أخي المؤمن العِبرةَ فيمنِ انتهجَ الطُّرقَ الملتوية إلى أيةِ عثراتٍ تودي به.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿وما أنتَ بمؤمنٍ لنا ولو كُنّا صادقين﴾**.

في هذا الشطرِ الأخيرِ من الآية، محاولةٌ أخيرةٌ منْ إخوةِ يوسف، لحملِ أبيهم على تصديقِ روايتهم، وهي تَنْدَرِجُ في إطارِ أساليبِ الإقناعِ غيرِ المباشرة، التي تُخاطِبُ اللاوَعْيَ في الإنسان، أكْثَر مِنْ مُخاطبةِ الوعي.

وتفصيلُها هو التالي:

يقومُ المُتَحَدِّثُ بسردِ الواقعة، وهي غريبةٌ صعبةُ التصديق، ثم يُعاجِلُ

المستمعَ قبلَ أنْ يتركَ له المجالَ بعرضِ أحداثِ الواقعةِ على ميزانِ التصديق الداخلي، بأنْ يقولَ له: صحيحٌ أنْ ما أعْرِضُهُ هو صعبُ التصديق، فترتاحُ نفسُ المستمعِ، إذْ إنّ التوجيه الخارجيَّ أسقَطَ عنها عِبءَ العرْضِ على الميزانِ الداخلي، وتستسلمُ لقيادةِ المخاطب في التوجيه، فيحصُلُ الاطمئنانُ الذي يفْتَحُ البابَ للتصديقِ دونَ المراقبة.

فلهذا قالوا: **﴿وما أنتَ بمؤمنٍ لنا ولو كُنّا صادقين﴾**.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - لتنبيه الناس إلى أن ليس كل مشتكٍ باكٍ هو على حق، ووجوب التحقق من صدق دعواه.

٢ - للتنبه من أن سوق الأدلة للدلالة على الصدق ليست صنو الصدق دائماً بل أن كثرة سوق الأدلة ينبغي أن تحملنا أكثر على اليقظة والحذر.

٣ - للدلالة على أن سوق عبارات التطمين كقولهم: وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين، ليست دليل صدق بقدر ما هي دليل محاولة إقناع مستثرة.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ١٣]

نصلُ معاً أخي المؤمن إلى المشهدِ الأخير من هذا الفاصلِ في حياةِ يوسفَ عليه السلام. وقد أتمَّ إخوةُ يوسفَ ما تآمَرُوا عليه مِنْ إبعادِه عنْ أبيهِ يعقوب، وها هُمْ يَدْعَمُونَ الأقوالَ بالأفعال، للتدليلِ على صحةِ رِوَايَتِهم منْ أكْلِ الذِّئبِ

ليوسفَ عليه السلام، وذلك لقطعِ كلِّ أملٍ في نفسِ يعقوبَ عليه السلام، من عودةِ يوسُف عليه السلام.

يقولُ الله تعالى: ﴿وجاؤُوا على قميصه بدمٍ كَذِب﴾.

في هذا الشَّطْرِ من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في افتتاحِ الآيةِ بكلمةِ **﴿وجاؤوا﴾** وفي هذا تناسُقٌ بديعٌ معَ أُسلوبِ السَرْدِ، وخصوصاً في هذا الفاصل. فنجد في الآيةِ السابقةِ قولَ الله تعالى: **﴿وجاؤُوا أباهُمْ عشاءً يَبْكُون﴾**، وسنَجِدُ أنّ الآيةَ اللاحقة تبدأ بكلمةِ: **﴿وجاءَتْ سيارةٌ﴾**[1]. اللافِتُ أنّ القارىء يَمُرُّ على هذه الآياتِ، فيغْمُرُه الشعورُ بالسعادةِ، والحبور لهذا التَّنَاسُقِ البديعِ، والانسياب اللُّغَوِيِّ المُعجِز..

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿وجاؤُوا على قميصِه بدمٍ كذب﴾** في الإيجاز اللُّغوي، عبْرَ إيرادِ المعلوماتِ تَتْرا دُونَ تَكْرارٍ في سياقِ السَّرْدِ، دُونَ الحاجةِ إلى ذِكْرِ هذه التفاصيلِ أولاً، عندَ القيامِ بها، لوجوبِ مُرُورِها لاحِقاً، وهي القِمّةُ في البَلاغةِ القَصصيّة.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: **﴿بدمٍ كذب﴾**، وهو ما يُسَمَّى في عِلْمِ البيانِ بالمبالغة، حيثُ استُبْدِلَت الصِّفَةُ بالمصدر، فنحنُ نقولُ عادةً دَمٌ كاذِب، أمّا قولُنا دَمٌ كَذِب، فكأنّنا نقولُ: هو الكَذِبُ بعَيْنِه. ولقد فتحَ الله تعالى على الإنسانِ في عصرِنا الحاليِّ، مِنْ أبوابِ العِلْمِ الشيءِ الكثير، وتضافَرَتِ التِّقْنِيَّاتُ الحديثةُ في ميادِينِ العلوم كافةً، لإعطاءِ المزيدِ منَ الوُضوح، فيما غُمّ على السّابقين. ولو عُرِضَت مسألة الدّمِ على قمِيصِ يوسفَ في يَوْمِنا الحاليِّ على المباحث الجِنائيّةِ، لأمكنها وبسرعة، أنْ تَجْزُمَ أنه ليس دَمَ إنسان، وتِلْكَ مشيئَةُ

(١) [سورة يوسف، الآية: ١٩].

الله تعالى، بعدمِ الفَتْحِ والتِبيان عَنْ علومٍ في عصرٍ، وفَتْحِها في عصْرٍ آخر، مَعَ البقاءِ دائماً تحتَ سَقْفِ قاعدة: ﴿وما أوتيتُمْ منَ العِلْمِ إلا قليلا﴾[1].

وعَنْ قاعدةِ محدودية العلومِ البشرية، يتميَّزُ الرُّسُلُ والأنبياءُ مِمَّن اصْطَفَى الله تعالى فيما شاءَ من الإعلامِ لهم. وفي مسألة الدَّمِ على قَميصِ يوسفَ عليه السلام. فلقد فتحَ الله تعالى على قَلْبِ يعقوبَ عليه السلام، وَوَقَر في قلبه أنّ الدَم ليسَ دَمَ يُوسُف، ولا حاجَة به إلى إثباتٍ مادِّي، وستُرِينا الآياتُ اللاحِقات صِحَّة هذا اليقين.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أمراً﴾.

في هذا الشّطْر منَ الآية، لطيفتان اثنتان:

اللطيفة الأولى: بلاغِيّة: فالمقصودُ منْ جوابِ يعقوبَ عليه السلام، عدمُ تصدِيقه للروايةِ التي ساقُوها بِرُمَّتِها، فإذا به يتجاوَزُ كلَّ التفاصيل، ولا يُناقِشُ في الكَيْفِيّةِ والحَيثية، بل يرْفُضُها جُملةً واحدة، وفي الوقتِ عينه، فإن الحَدَث جَلَلٌ. والمسألة فائقة الأهمية، إلا أنه التثبيتُ الرّبّانيُّ لنَبِيِّه، وهي مِيزةٌ نادِرَةٌ بينَ البشر، قَلّما نجِدُها بهذا الوضوح.

اللطيفة الثانية: في جمالِ الأسلوبِ المُعْتَمد، فقد كانَ بإمكانِه أنْ يقولَ لهم: بَلْ كَذَبْتُم، إلا أنه تعالى عنِ اتِهامِهم المباشِر بالكَذِب، فإذا به يستَعْمِلُ أُسلوباً راقياً جداً، في الرَّدِّ عليهم فيقول: بل سوَّلَتْ لكُمْ أنْفُسُكُمْ أمراً. وفي هذا، تعليمٌ لنا في كيفيةِ إدارةِ حِوَاراتِنا فيما بيْنَنا..

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿فصبرٌ جميلٌ والله المُستعانُ على ما تصِفُون﴾.

---

(١) [سورة الإسراء، الآية: ٨٥].

في هذا الشطرِ الأخيرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأوْلى: في قولِه تعالى: ﴿فصبرٌ جميلٌ﴾.

فمع هذه الكلمة، نجِدُ أنّ الأسلوبَ القَصصيّ قد تبَدَّلَ كُلياً، فينتقلُ منْ وتيرةٍ عاليةٍ جداً، تتمثَّلُ بمجهودٍ كبيرٍ، بذَلَهُ الأبناءُ في تسويقِ روايتهم، وازديادِ التوتر، في انتظارِ رَدّةِ فِعْلِ أبيهم، إذا به يَنتقِلُ إلى وتيرةٍ منخفضةٍ جداً، معَ هُدوء العبارة، وتعبيرٍ عنِ التسْليمِ المُطْلَقِ لأمر الله تعالى.

لقد أيْقَنَ يعقوبُ عليه السلام، أنّ ابْنَهُ يوسفَ، لم يأْكُلْهُ الذِّئب، وقدْ يكونُ ذلك حافِزاً لدى الواحدِ منّا، فيما لو وُجِدَ في مثْلِ هذا الموقف، أنْ يستَعِرَ غضَباً، ويتوقَّد حنقاً وحقْداً، ويُرْسِلَ العيونَ ويستعين بأصحابِ الخِبْرَة للتّحَقُّق، ويطيل السؤال ويَطْلُب البراهين مع الاتجاهِ التّلقائي لمعاقبةِ الأبناءِ بحسبِ النتيجةِ الحاصِلةِ، بغضِّ النَّظَرِ عنِ الأسبابِ والوقائع..

فما كانَ منه إلا أنْ قال: ﴿فصبرٌ جميلٌ..﴾

إنَّ يعقوبَ عليه السلام، إذْ أدْرَكَ أنّ ابْنَهُ قد أُبْعِدَ عنه، وإذْ تيَقَّنَ أنه لم يأْكُلْهُ الذِئْبُ، علِمَ أنَّ مشيئةَ الله تعالى نافِذَةٌ في خَلْقِه، فتَحَمَّلَ مرَارَةَ الفِراقِ وألم البعاد، ولجأ إلى الصبرِ فقال: صَبْرٌ جميل؛ وطَلَبُ هذا النوعِ منَ الصبر، طلبٌ كبيرٌ، لأنه منْ أصْعَبِ أنواعِ الصَّبْر:

فلقد يصْبِرُ الإنسانُ على ظُلْمٍ شخصي تعَرَّض له، أو على مَكْرُوهٍ لحِقَ به، أو على الوصولِ إلى مُبْتَغى طالَ أمدُه، أو على طَاعةٍ عاهَدَ الله تعالى عليها، ولكلٍّ منْ هذه الأنواعِ منَ الصبر، درجة..

أمّا أنْ تَعْرِفَ أنّ ابْنَكَ الذي تُحِبُّه حُبّاً جَمّاً، وهو بَعْدُ صغير. بحاجةٍ إليك، قد أُبْعِدَ عَنْكَ ظُلْماً، وأنْ تَعْرِفَ أنه حيٌّ في مكانٍ تَجْهَلُهُ، ولا تَعْرِفُ شيئاً عنْ

مصيرِه، ثم تقول: سأصْبِرُ صَبْراً جميلاً، فإنه مِنْ أعْلَى درجاتِ الصبر، وهذا الأَمرُ يحْتَاجُ العونَ مِنَ الله تعالى، فلهذا قالَ يعقوبُ عليه السلامُ مباشرة: والله المستعانُ على مَا تَصِفون.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿والله المُسْتَعانُ على ما تصِفُون﴾**.

إنّ في القرآنِ الكريمِ مصطلحاتٍ ثابتةً، نراهَا مبثوثةً في أرجاءِ هذا الكتابِ المُنْزَلِ منْ رَبِّ العالمين. ومِن بين هذه المُصْطَلحات، مُصْطَلح: ما يَصفون، أو ما تصِفُون. التي هي في الأصلِ كلمةٌ مُحايدَة، تنطبق على التعبيرِ عَنْ فكرةٍ مُعَيَّنةٍ، قد تكون صالحةً أوْ سيئة. إلا أنّ هذا التعبير، عندما يردُ في القرآن الكريم، فإنه دائماً، يأتي ترجمةً لأفعالٍ غير مرْضي عَنْها. لقد وَرَدَتْ هذه العبارةُ أرْبَع عشرة مرةً في القرآن الكريم، بصيغٍ مختلفة، وفي كلِّ مرةٍ يكونُ الموضوع هو الإشارةَ إلى كَذِبِ القائلينَ أو مجانبتهم الصَّواب. وهي إشاراتٌ نَلْتَقِطها مِنَ القرآن، لتؤكِّد لنا قولَ رسول الله ﷺ: إنَّ هذا الدينَ متينٌ فأوغلوا فيه برفق.

اللطيفة الثالثة: إنَّ هذا الشَطْر منَ الآية، كانَ ولا يزالُ مصدرَ عزاءٍ وتسليةٍ لكثيرٍ من الناسِ في مِحنِهم. ونسْتَذْكِرُ في هذا المجال، قول السيدة عائشة رضي الله عنها في معْرِض رَدِّها على حديث الإفْك: **«إني والله لقد عَلِمْتُ أنكم سمِعْتُم ما يتحدَّثُ به النّاس، ووَقَرَ في أنفُسِكم وصَدَّقْتُم به، ولَئِنْ قلتُ لكم إني بريئةٌ، والله يعلمُ إني لبريئةٌ، لا تُصدِّقوني بذلك، ولَئِن اعترفْتُ لكم بأمرٍ، والله يعلمُ أني بريئةٌ، لتُصَدِّقُنّي»**.

والله ما أجِدُ لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذْ قال: **﴿فصبرٌ جميلٌ والله المستعانُ على ما تصِفون﴾**.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب عدم الإنفعال حال عدم تصديق رواية تروى لنا، وإنما يجب علينا أن نتروى ونفكر ملياً قبل اتخاذ القرار بكيفية التعامل معها

٢ - لاعتماد قول وسلوك يعقوب عليه السلام عند الملمات فنقول: صبر جميل والله المستعان. وهذه العبارات، تلقي السكينة في القلب والطمأنينة في النفس.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ١٤]

تنتقلُ بنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، إلى مشهدٍ جديدٍ منْ مشاهِدِ قصةِ يوسفَ عليه السلام، إذْ ستنقطِعُ عنا منَ الآن، وحتى جُزْءٍ متقدمٍ مِنَ السورة، أخبارُ يعقوبَ عليه السلامُ وبنيه، لنتابعَ معاً، ما قدَّرَ الله تعالى ليوسف عليه السلام، بعد أنْ تركَهُ إخوتُه في غيابَةِ الجُب، وانصرفوا عنْه غيرَ عابئين بمصيرِه.

وقبل أنْ نتأمَّلَ في المعاني والمباني الواردةِ في الآيةِ الكريمة، نُشيرُ إلى ملاحظةٍ فائقةِ الأهمية، في قوةِ الزّخْمِ في العباراتِ التي تقْتَضي مشاركةً ذِهنيةً إيجابيةً منَ القارىء والمستمع، لفهم المعنى الذي تزْمِي الآيةُ إلى إيصالِه إليه، وهذا الأُسلوبُ هو أفضلُ أساليبِ شدِّ الانتباه، دونَ الإطالةِ المُمِلّةِ منْ جِهَة، أو الإيجازِ الغَامِضِ المرهقِ منْ جهةٍ ثانية.

يقولُ الله تعالى: **﴿وجاءَتْ سيَّارةٌ فأرْسَلُوا وارِدَهُمْ فأدْلَى دَلْوَه﴾**

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تأمُّلِنَا لجمالِ الصِياغةِ الأدبية، في وصفِ الوَقائع بتعابيرَ قليلة، ومعانٍ كبيرة. ففي جملةٍ واحدة، تمَّ عرْضُ ثلاثِ وقائعَ مختلفة. تَحْمِلُ خيالنَا بعيداً في تصوُّرِ كُلِّ واقعةٍ على حدة، وتستَدْعِي استجلابَ كَمٍّ واسعٍ منَ الصُورِ منْ ذاكِرتِنا، وبسرعةٍ فائقةٍ، لمتابعةِ السِياقِ، خوفاً منْ شتات الذِّهن. وهذا ما يُسَمَّى في عِلْمِ النَفْس: بقوةِ الجذبِ الذِّهني، أي السماحِ للمستمع بتكوين المشهدِ المتكاملِ بنفسِه، دونَ تعَبٍ أو إرهاق.

﴿وجاءَتْ سيّارَة﴾ المشهدُ الأول: وما يَحْمِلُه منْ مجموعةٍ متكاملةٍ منَ البشرِ والدوابِ والبَضائع والحركةِ الكثيفة.

﴿فأرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ المشهدُ الثاني: لشخصٍ يَحْمِلُ مُهمَّةً مُحَدَّدَةً وهامةً في آن: وجوبُ إحضارِ الماءِ، عَصَبِ الحياةِ في الصَّحراء.

المشهدُ الثالث: ﴿فأدْلَى دَلْوَ﴾ أي إنه وَجَدَ الماء، وبدأ يَعْمَلُ على استخراجِه.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿وجاءَتْ سيّارَة﴾**.

لقد بدأتِ الفكرةُ وانتهتْ بكلمتينِ اثنتين. وفي ظاهرِ الحال، فإن المعنى لم يَكْتَمِل؛ وفي واقعِ الحال، لقد اكتَمَل المعنى في تكريمٍ عظيم ليوسفَ عليه السلام. فحينَ لم تَذْكُر الآيةُ إلى أينَ جاءَتِ السيارة. ونعرِفُ تلْقائياً، أنها جَاءَتْ إلى مكانِ وجودِ يوسفَ عليه السلام، فإنها بذلك جَعَلَتْ من يوسفَ محورَ حركةِ الآية، ولا حاجة إلى ذِكْرِ اسْمِه بعدَ ذلك. مثَلُها في ذلك، كقول الناس في أحاديثِهم: هلّ هِلالُه، دُون ذِكر رمضانَ على لسانِ أحدٍ منهم، لكنّهم كلَّهُمْ عرَفُوا أنه رمضان.

وهكذا، هذه العبارةُ في الآية.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: **﴿فأرْسَلُوا وارِدَهم..﴾**

نُلاحِظُ هنا أنّ الآية بدأَتْ بصِيغةِ المُفرد، حينَ بدأتْ بقولِ الله تعالى: **﴿وجاءَتْ سيّارة﴾** ثم انتقلتْ مباشرةً إلى صيغةِ الجمعِ بقولِه تعالى: **﴿فأرْسَلُوا وارِدَهم﴾** وفي هذا، تعبيرٌ عن تقريبِ المشهدِ منَ المستمعِ الذي انْطَلَقَ مِنْ مشهدٍ عامٍ بعيد، يتناوَلُ القَافِلَة بكامِلها وهي تسير، إلى مشهدٍ خاصٍ في بحثٍ تفصيلٍ هامٍ من تفاصيلَ تنقُلُها، ألا وهو حاجتُها إلى ماء، فجاءَ التركيزُ على حركةِ أفرادِها، فإذا بها في ذِهْنِ المستمعِ تتحولُ مِنْ كُتلةٍ واحدةٍ، يَفْهَمُ تحرُّكَها بصيغةِ المفرد، إلى مجموعةِ أفرادٍ يصْعُبُ عليه فَهْمُ حركتِهم بصيغةِ المفرد، فكان الانتقالُ إلى صيغةِ الجمع.

فانْظُرْ أخي المؤمن، إلى دِقَّةِ تلازُمِ الوصفِ القرآنيِّ، معَ الصيغةِ المناسبةِ، وتَناسُقِها مع حاجةِ المستمعِ إلى صفاءِ الصورةِ التي تَتَشكَّلُ لديه عنِ الحدث.

اللطيفة الرابعة: في قولِه تعالى: **﴿فأدْلَى دَلْوَه﴾**.

في هذه العبارة، تجانسٌ بَديع، يحملُ وقعاً في الأُذن، أجمل بكثيرٍ من قولِك: فأرسَلَ دَلْوَه، أو أنزَلَ دَلْوَه، فقالَ تعالى: **﴿فأدْلَى دَلْوَه﴾**.

وفي اللغةِ العربيةِ جماليةٌ ونَغَم، فأنتَ تقول: **«أدْلى دَلْوَه ثم دَلاّهُ»**، أي أنْزَلَ دَلْوَه، ثم استخرجَه بعدَ إنزالِه.

اللطيفة الخامسة: في هذا الشطرِ منَ الآية، في وقوفُنا عندَ هذا التدرُّجِ البديع في الاقترابِ من محورِ حركةِ الآية، أي يوسفَ عليه السلام. فتبدأ الآيةُ أولاً مع مجيء القافلةِ إلى المنطقةِ التي أُلْقِيَ فيها يوسفَ عليه السلام، وهي منطقةٌ قفْرَةٌ وعِرَةٌ غيرُ مأهولة، فوجَّهها الله تعالى في هذا الوقتِ إلى هذا المكان، حيث حَطَّتْ رِحَالَها. ثم حصَلَ تصْوِيبُ الوِجهةِ باتجاهِ يوسفَ عليه

السلام، بدرجةٍ أرْقى وأقربَ في إرسالِ مُتَعَهِّدِ جَلْبِ الماءِ في اتجاهِ البئر. ثم حصَلَ تصْويبُ الوِجْهةِ إلى عينِ الهدف، بأنْ أنْزَلَ الواردُ دَلْوَه، إلى حيثُ جَلَسَ يوسفُ عليه السلام، ينتظرُ رحمةَ الله تعالى.

والأمثلةُ في حياتِنا الدُّنيا كثيرةٌ متعددة، والتي تنْطَبِقُ عليها قاعدةُ إجراءِ مشيئةِ الله تعالى، وإمضاءِ إرادتِه فيما قدّرَ للعبادِ وقضى لهم في مجْرَياتِ أحداثِ حياتِهم. وقليلٌ منَ الناسِ مَنْ يُراقِبُ مسارَ الأحداثِ في حياته، وقليلٌ مِنَ الناسِ من يجِدُ تفسيراً لتسَلْسُلِ أحداثٍ نقَلَتْهُ مِنْ واقعٍ إلى واقع. قد يكونُ خيراً منه أو أسوأ منه. وما ذَاكَ إلا مصداقَ قولِه تعالى: **﴿وتلك الأيامُ نُداوِلُها بينَ الناس﴾**[1].

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿قالَ يا بُشرىٰ هذا غلامٌ وأسَرُّوهُ بضاعَة. والله عليمٌ بما يعملون﴾**.

في هذا الشَطْرِ الأخيرِ مِنَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في استمرارِ أُسلوبِ الزّخْمِ الواردِ في الآية، بتجاوُزِ بعضِ التفاصيلِ التي يقومُ المستمعُ باستيعابِها، بما حباهُ الله تعالى مِنْ نِعمةِ العقلِ والوَصْل، فَيَبْقَى بذلك على تواصُلِه معَ الآية. ومنها عدمُ ذِكْرِ حالِ الواردِ عندَ رَفْعِ الدّلْو: فإنْ يوسفَ عليه السلام، يزِنُ بالتأكيدِ أضعافَ وزنِ ماءِ الدلو، والمشاعرُ التي تُراوِدُ الواحدَ منا، حين يَنْتَظِرُ قُوَّةَ جَذْبٍ مُعينة، وتأتيهِ قوة جذبٍ شديدةٌ جداً، تتراوَحُ بينَ الدّهْشَةِ والاستغراب إلى الخوفِ والهَلَع، حتى إذا ما بدا يوسف عليه السلام، انقلبت المشاعرُ إلى فرحٍ واستبشار.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿وأسَرُّوه بِضاعَة﴾**.

---

(١) [سورة آل عمران، الآية: ١٤٠]

ومن إعجاز القرآنِ الكريم، إيجازُه. فهاتانِ الكلمتانِ تُبْرزانِ نفسيةَ التُّجارِ أصحابِ القافلة، الذين ما كادَتْ أعينهُم تقعُ على يوسف، حتى وَجَدوا فيه متاعاً صالحاً للبيع. والانتفاعُ بالثمن هو أولُ وَجْهٍ من وُجوهِ الانتفاع، التي يُفَكِّرُ فيها التاجرُ عادة. ثم إنَّ حُبَّ الكَسْبِ المادي، دونَ التحرِّي إذا كانَ منَ الحلالِ أم مِن الحرام. كان شأن هؤلاء التجار. فإنهم لم يُبْدوا أية مُحاولةٍ لإعادتِه إلى وَلِيِّه، أو ذَوْيه.. بل وَجَدُوا فيهم مُنافِساً على هذا الكَسْبِ الذي أحرزُوه بوجهٍ غير شرعي. وهم يعلمون في قرارة نفوسِهم، أنّ وليَّهُ سيَطْلبه، ولنْ يسكت على فِقْدِه، فْأسَرُّوه - أي أخْفَوهُ - حتى لا يَراهُ أحدُ معارفه، فيستنقِذَهُ منهم، فيفوتُ عليهم كسبُهم، وأزْمعوا على بَيْعه في سوقِ مصْر، حيث لا يَعْرِفُه أحد.

اللطيفة الثالثة: في هذا الشَطْرِ منَ الآية، في استخلاصِنا لمَعْلَمٍ جديدٍ منْ معَالِم نبَاهَةِ يوسفَ عليه السلام: فهو في عمرٍ تابعَ معَه سيرَ الأحداث، ويَعْرِفُ تماماً مَنْ هُوَ، ومَنْ أبوه ومَنْ إخوتُه، وقد كانَ بإمكانِه أن يُسارِع حين تخْلِيصِه مِنَ الجب، أنْ يَذْكُرَ لهم كُلّ هذه الحقائق. عسَى أنْ يجِدَ لديهم المعونة، فيُرْجِعوهُ إلى أبيه. ويستغربُ الواحدُ منا كيفَ أنه ارتَضَى أنْ يُساقَ للبيعِ في الأسواق. لكنّه التثبيتُ الإلهيُّ، وقد أيقنَ أنّ الله تعالى معه. وأنَّه لن يتخلَّى عنه، وعَلِمَ أنَّ وصولَ القافلةِ واستخراجَهُ مِنَ البئر، إنْ إلا هي حكمةٌ ربانيةٌ قَدَّرها الله تعالى له، سيَجِدُ ترجَمَتَها في ما سيلي من الأيام، ويكفيه قولُ الله تعالى في الآياتِ السابقة: ﴿**وأوحينا إليه لتُنَبِّئَنَّهم بأمرِهم هذا وهم لا يشعرون**﴾. ثم تنتهي الآيةُ بقولِ الله تعالى: ﴿**والله عليمٌ بما يَعْمَلُون**﴾.

* * *

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على تصرف التجار الذين لا يهمهم إلا الكسب المادي وكيف يتصرفون حال عثورهم على ما فيه منفعة لهم.

٢ - للدلالة اللغوية على جمالية ومتانة النص القرآني بذكر قوله تعالى: فجاءت سيارة فأرسلوا وردهم فأدنى دلوه.

٣ - للدلالة على أن الله تعالى يعلم كل ما يفعله الناس ويحاولون إخفاءه، وأنه تعالى مع علمه بعملهم يمهلهم إنفاذاً لمشيئته فيهم، فنستشهد بقوله تعالى: ﴿والله عليم بما يعملون﴾.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ١٥]

تنتقلُ بنا الآيةُ أخي المؤمن، إلى الفَصْل الثالثِ من قِصةِ يوسفَ عليه السلام، بعد أن استخرجَتْهُ القافلة منَ البئر، وسارَتْ به نَحو مِصْرَ. وسنَلْحظ مباشرةً، أنّ أسلوبَ السرد، قد تغَيَّرَ كُلياً. فبعدَ أنْ كانَ جَزْلاً مُوْجَزاً مُتَسارِعاً، تتعَدَّدُ فيه الصُّوَرُ وتتعَاقَب، وتتجاوَزُ الآياتُ تفاصيلَ الأحداثِ، بانتقالِها مِنْ حدثٍ إلى آخر، فإذا بها منَ الآنَ فصاعداً. نجدُها هادئةً مُفصّلَة. ذاك أنّ الحياةَ العمليةَ ليوسفَ عليه السلام، قد بدأتِ الآن. ولا نقولُ بذلك: إنّ الصعوباتِ قد انتهت، بل لا يزالُ يَنْتظِرُه مِنْ تقاديرِ الله تعالى، ما كتبَهُ الله له، وسنجدُ تفصيلَ هذا في اللاحقِ منَ الآيات.

يقولُ الله تعالى: **﴿وشَرَوْهُ بثمنٍ بخسٍ دراهم مَعْدودة﴾.**

في هذا الشطرِ من الآية لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قولِه تعالى: ﴿وشَرَوه﴾، وفي هذه الكلمة إبرازٌ لخصوصيةٍ في اللغةِ العربية، لا نَجِدُ لها مثيلاً في اللُّغاتِ الأُخرى: إنّ في اللغةِ العربيةِ كلماتٍ تَحْمِلُ في الوقْتِ ذاتِه، معانيَ الأضْدَاد، أي إنه يُمْكِنُك أَنْ تستعملَ الكلمةَ للإشارةِ في موضعٍ إلى مَعْنًى، ثم تَسْتَعْمِلُ الكلمةَ ذاتَها للإشارةِ في موضعٍ آخرَ إلى المعنى المعاكسِ للمعنى للأول.

ومنَ الأمثلةِ على هذه الكلمات، كلمةُ مَوْلَى. فإنه يُمْكِنُك أَنْ تقول: هذا مَوْلاي في موضعٍ، ويقعُ المعنى: هذا سيِّدي. ويُمكِنُك أنْ تقول: هذا مولاي، في موضعٍ آخر، ويقعُ المعنى: هذا عَبْدِي أو خادِمي. كما أن في اللغةِ العربيةِ كلماتٍ متضادةً في المعنى مشتقةً من الجذرِ نفسه، ككلمتي: شرى واشترى. وفي الآيةِ: ﴿شَرَوْهُ﴾ جاءَتْ بمعنى بَاعُوه. ولو قلنا: اشتروه، لانقلبت إلى ضد المعنى نسُوقُ هذه اللطيفة. لنتطرَّقَ مِنْ خلالِها إلى مسألةٍ غايةٍ في الأهمية:

في زمنِ تراجُعِ العلمِ والعُلماء في حِقبةٍ خافِتَةٍ مِنْ تارِيخنا الإسلامي. انْبَرى المستشرقونَ الغُرباءُ عنِ اللغةِ العربية، وبهمّةٍ عالية، لدراسةِ التراث الإسلامي. وخاضُوا في كتاباتِ علماءِ المسلمين، وكثيراً ما كانَ خوضُهم عَنْ سوءِ نيةٍ، للطَّعْنِ والدّسِّ على هذا الدين، فإذا بهم يَخْلُصُونَ بنتائج خاطئةٍ، نتيجة جَهْلِهِمْ بخفايا اللُّغةِ العربية، وقَواعِدها المتينة.

المؤسف والخطر في آن، هو أنّ الكثيرَ منْ كتاباتهم أُغْتُمِدَتْ في مشارق الأرض ومَغارِبها كوثائقَ يُلْجَأُ إليها للتعرُّفِ والتعريفِ بدينِ الإسلام، وإنّ منْ مُوجِباتِ مُسْلمي هذا العصر، وقد فتَحَ الله تعالى عليهم بفتوحِ العلمِ الحديث، أَنْ يُحَقِّقُوا بهذه الكتابات، ويُصَحِّحُوا الخاطىء منها، ويَنْشُروها مُصحَّحَةً ليرفَعُوا الظُّلْمَ والحَيْفَ اللاحقَ بالإسلام، بفعلِ كتاباتِ المستشرقين.

اللطيفة الثانية: في هذا الشطرِ منَ الآية، بقولِ الله تعالى: ﴿**بثمنٍ بخس..**﴾ أي إنهم باعوه كعبدٍ في أسواقِ مصر، بثمنٍ أدنى مِنَ الثّمنِ المُتعَارَف عليه بينَ التُّجار، لمن هم في مثلِ سِنِّه، وجَمالِه، وبنيته.. بل أدْنَى بكثير، وهو ما استَحَقَّ صِفة: البَخس. ولقد يأْخُذنا التّساؤُلُ عنْ سِرِّ ذلك وعَنْ سرِ إيرادِ ذلك في الآيةِ، في سياقِ القِصة.

والجوابُ، أنّ الله تعالى أرادَ أنْ يُكْرِمَ يوسفَ عليه السلام، إكراماً عالياً جداً، فجعَلَه يمُرُّ بالصِّعابِ، الواحدةِ تلوَ الأُخرى، وفي كلِّ نوعٍ من الصعابِ أصعبُها. لقد بدأ ذلك بطريقةِ إقصائه عن أبيه، فلم يكتفِ إخوتُه بشدِّ وثاقِه مثلاً، وإبقائه على وَجْهِ الأرض، يراهُ كلُّ مارٍ في الجوار، بلِ اختاروا الخيارَ الأشَدّ، بإخفائِه عن وَجْهِ الأرض. وحِينَ بِيعَ في الأسواق، لم يُبَعْ بالسعرِ العادِيِّ المُتعارَفِ عليهِ بينَ الناس، بل بِيْعَ بأبْخَسِ الأثمان، ليصبحَ بعد ذلك، أغْنَى وأقوى رجلٍ على وجهِ الأرض في زَمَنِه، كما سنَرَى لاحقاً، ولو أنه بدأ حياتَه مُتْرفاً يتَدَرَّجُ في المناصبِ مدفوعاً لَما كانَ لما آلَ إليه مِنْ أهميةٍ بالغةٍ في التكريم.

يَصْدُقُ هذا، قولَ رسول الله ﷺ: «**إنّ مِنْ أشَدِّ الناسِ بلاءَ الأنبياءُ ثم الذين يَلُونَهُمْ ثم الذين يلُونَهُم، ثم الذين يلُونَهُمْ**». صَدَقَ رسولُ الله.

اللطيفة الثالثة: في هذا الشطرِ منَ الآية، في قولِه تعالى: ﴿**دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ**﴾ وفي ذلك مُبالغةٌ في إظهارِ جسامَةِ الجُرمِ المرتكَبِ في حَقِّ يُوسُفَ عليه السلام. وفي ذِكرِ الدّرَاهِم المعدودة، مشيئةٌ ربانيةٌ في التركيز على واقعةِ بَيْعِهِ في الأسواق، تمشِّياً معَ الأسلوبِ اللُّغوِيِّ المتعمّدِ في هذا المشهدِ الأوّلِ منَ الفصلِ الثالثِ مِنْ قِصّةِ يوسف. وفي اللغة، فإنه لا يزالُ يُعْتَبَرُ مَعْدوداً ما كانَ دونَ الأربعين، ويقولُ الإمامُ ابنُ عباسٍ رضِيَ الله تعالى عنهما في تفسيرِه لهذه الآية، إنّ يوسفَ عليه السلام، بِيعَ بعشرينَ دِرْهَماً، وحلةٍ ونَعْلَين، أي إنّ

ثَمَنَهُ لم يَبْلُغِ الدِّينار، فسبحانَ الله العظيمِ الذي جَعَلَ لنا في قصَصِ الأوّلِينَ عِظةً وعِبْرَة.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿وكانوا فيه مِنَ الزاهدين﴾.

في هذا الشطرِ الأخيرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا مشْدُوهينَ مندهشين حولَ سرِّ زُهْدِهم في يوسفَ عليه السلام، وقد علِمْنَا أنَّ فيه مِنَ الخِصَالِ ما يَحْمِلُ كُلَّ مُمْسِكٍ به على التّشَبُّثِ به: فهو الحَسَنُ الوجه، المتوقِّدُ الذكاء، المكتمِلُ البنِية، الهَيِّنُ اللَّين. الذي اختَصَّه الله تعالى برحمتِه، وكسَاهُ ثَوْبَ الإيمان، وفضائلَ الأخلاق، ولا يعْسُرُ على التُّجَارِ إدراكُ هذه الصِفاتِ فيه.

أمّا السَببُ، فيكْمنُ في أُمورٍ عدة:

فهم لم يَدْفَعُوا ثَمَنَهُ أصلاً، وقد عَلِمْنَا أنه وقَرَ في صُدورِهم أنه عبْدٌ آبق.

وهم خافُوا إنْ هُمُ احتفظوا به، أنْ يأتيَ أصحابُه الأصليون، فيُطَالبوهُمْ به، زادَ في يقينهم صَمْتُ يوسفَ عليه السلام، وعدمُ تِبيان مكانَتِه..

وهم بحاجةٍ إلى المال، أي مالٍ كان، بصفتِهم تُجاراً، على قاعدةِ: تنزيلُ الأسعارِ عندَ الاضطرار..

إلا أنّ السببَ الأصح، هو أمرُ الله تعالى، بجعلِهم منَ الزاهدينَ فيه. لأنّ الله تعالى اصطفاهُ لمكانةٍ عالية، وما وُجُودُه بينَ أيديهم، إلا حلقةٌ من سلسلةِ طريقه نحو المجد..

اللطيفة الثانية: إنَّ اسم يوسفَ، لم يُذَكَرْ أبداً في هذه الآية، ولا في الآية التي سبَقَتْ، وكُنّا قد لَحَظْنا في تأمُّلِنا للآيةِ السابقةِ. أنَّ عَدَمَ ذِكْرِ اسْمِ يوسفَ،

هو تكريمٌ له، لأنه محورُ القِصَّة، ولا حاجةَ لِتَكْرارِ اسْمِه إلاّ لمقتضياتِ أُسلوبِ السردِ وجماليَّةِ العِبارة.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِنا لما تُشيرُ إليه الآيةُ الكريمةُ مِنْ قاعدةٍ هامة، تُحرِّكُ العَجَلَة الاقتصادية بينَ الناس، على مَرِّ الزمان ألا وهي: زهدُ البعضِ بما في أيديهم، ورغبةُ البعضِ الآخرِ فيه، يُحرِّكُ الطَّرفين، فيحصُلُ البيعُ والشراء.

والمتعمِّقُ في مسألةِ البيعِ والشراء يجدُ أنّ السِلَعَ، عدا تقسيماتِها المتعددة، تُقْسَمُ إلى قسمين:

➢قسمٌ نجدُ للزهدِ فيه مكاناً: كمثل بيعِ العَقَار، أو بيعِ الإرث، أو بيع الأثاثِ الشخصي، أو السيارةِ الخاصة، أو ما شَابَه..

➢وقسمٌ لا نَجِدُ للزُّهدِ مكاناً فيه: كبيع الموادِّ الغذائية، أو التجارةِ العاديةِ بصورةٍ عامة..

ولا يفُوتُنا في نهايةِ تأمُّلِنا لهذه الآيةِ الكريمة، أنْ نسْتَخْلِصَ قاعدةً مِنْ قواعِدِ علْمِ النفسِ الإنسانيّ، ومُفَادُها:

إنَّ العبرةَ هي بخواتيمِ الأُمور، لا ببداياتها. فلقد يبدو السعيُ في أولِه ضعيفاً غير مُشَجِّعٍ على المتابعة، لكنّ قوةَ الإرادةِ والإصرارَ على المتابعة، وصحةِ التوكُّلِ على الله تعالى، تَجْعَلُ المُمْكِنَ مُؤكّداً، والمستحيلُ مُحَقّقاً، فلا تَدعُوا للشيطانِ وَوَسَاوِسِه عليكم سبيلا.

* * *

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن المسائل لا تتم كما يظن الناس في رأيهم وحكمهم على الأمور إذ أن مواصفات يوسف عليه السلام تقتضي أن يكون ثمن بيعه عالياً جداً فباعوه بثمن بخس، وأنه يفترض بهم أن يكونوا متمسكين به، فإذا هم فيه من الزاهدين.

٢ - لاستعمال كلمةَ «شراه» في المعاملات، وهي كلمة ذات وقع جميل، وقد أوردها القرآن الكريم منتخباً إياها لوصف واقعة، وجميل منا أن نتأسى ونقتدي بعبارات القرآن الكريم.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ١٦]

تُتابعُ الآيةُ الكريمةُ، أخي المؤمن، إعلامنا بما كانَ مِنْ يوسفَ عليه السلام، بعدَ أن انتقلَ إلى أرضٍ جديدةٍ لم يَعْرِفْها قَبْلاً، ألا وهي مِصْر، عاصمةُ الحضارةِ في ذلكَ الزمان، وإليها تشْخَصُ أبصارُ كلِّ الناس، وقدِ انتظمتْ إليها خُطوطُ التجارة، فكانَتْ خزّانَ الأرضِ في الغِذاءِ والمؤَنِ. فإذا وصَلَ إليها يوسف، فقد وصَلَ إلى قَلْبِ المعمورةِ في عصْرِه، فلنتأمّلْ معاً ما جاءتْ به الآيةُ الكريمة.

يقولُ الله تعالى: **﴿وقال الذي اشترَاهُ مِنْ مِصْرَ لامرأتِه أكْرِمي مثْوَاه﴾**.

في هذا الشَطْرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في إغفالِ صفةِ الذي اشتراهُ، وسنَعْلَمُ لاحقاً أنه الوزيرُ الأوّلُ في مصْر، أي رئيسُ الوزراء، وهي صِفةٌ خَطيرة، كونُ الذي يشغلُ هذا المنْصِب، هو الحَاكِم الفِعْلِيُّ والمُتَصَرِّفُ الحقيقيُّ بأحوالِ الناس، وحينَ نَعْلَمُ أنَّ مصرَ هي أقْوَى بلدٍ في ذلكَ الزمان، فنحنُ نُدْرِكُ أنَّ يُوسفَ عليه السلام، أصبحَ في عُهْدَةِ أقوى بيتٍ في الدنيا. هكذا وبصورةٍ مفاجِئَة، ودُفعةً واحدة، إرتقى يوسفُ عليه السلامُ منَ الذُّلِّ والبُؤْس إلى الرخاءِ والرِّفاهِ والطُّمأنينة، وهذا الأمر، لا يحصُلُ بتدبيرِ عبدٍ، بل بمشيئةِ ربّ، سبحانَه وتعالى، إذا قضَى أمراً فإنما يقولُ له كُن فيكون.

وبالعودةِ إلى النّصِّ اللغوي، نجدُ أنّ الآيةَ أغْفَلَتْ صِفة الذي اشترَى يوسفَ عليه السلام، وهذا أمرٌ مُسْتَغْرَبٌ في كلامِنا، نحن البشر، الذين نَجْتهدُ دائماً بالتعريفِ بصفةِ كبيرِ القوم مباشرةً، فيما لو تطَرّقْنا إلى الحديث عنه.. وهذا منَ الإعجازِ اللُّغوِيِّ في القرآن: تأكيداً على أنه ليسَ منْ كلامِ البشر، إذ إنه حتى واقعةُ الشراءِ تجاوزتْها الآيةُ، ولم تذْكُرْ صفةَ المُشتري حينَ الشراء.

اللطيفة الثانية: في استيعابنا للإشارات الضمنيةِ المريحة، التي نَلْمَسُها من بين كلماتِ الآية، تلميحاً لا تصْرِيحاً بتبدُّلِ الحالِ التي أصبحَ عليها يوسفُ عليه السلام. ومنها:

قولُه تعالى **﴿وقال الذي اشترَاهُ مِنْ مِصْرَ﴾** أي البلدِ الغَنيِّ المُتْرَف.

ومنها قولُه تعالى: **﴿وقال الذي اشترَاهُ مِنْ مِصْرَ لامرأتِه أكْرِمي مثْواهُ﴾** أي إنه وقَعَ موقِعاً حسَناً في قَلْبِ العزيز.

اللطيفة الثالثة: في قولِه **﴿أكْرمي مثْواه﴾** إستعارةٌ لغويةٌ جميلة. فبدل أنْ

يقول: أكْرمي يوسف. قال: أكرِمي المكانَ الذي سيكونُ فيه يوسف، وفي هذا وُدٌّ بالغٌ، واهتمامٌ زائد، ما اعتادَ الخَدَمُ عليه.

اللطيفة الرابعة: في تأمُّلِنا لحالِ العزيز، في مُعاملتِه ليوسفَ عليه السلام وهو حديثُ عَهْدٍ به. فَمِنَ المألوفِ عند أكابرِ القوم، عدمُ الاهتمامِ بتفاصيلِ الأُمور، ومنها مجيءُ أو ذَهابُ أو تحرُّكُ وتَعْدَادُ الخَدَم، وغالباً ما لا يَعْرِفُونَ مَنْ يَخْدمهم، ولا يَنْظُرُونَ حتى في وُجوهِهم، وإذا حصَلَ وأعارُوا المسألة اهتماماً وجيزاً، أوْكَلُوا أمرَ تَدَبُّرِ العبيدِ والخدمِ إلى حاشيتِهم غيرِ المُقَرَّبَة، كوكيلِ الخَدَم، أو مَنْ هو دُونَه، أما في هذا الموقفِ الفريد، فقد تَفَرَّغَ العزيزُ للنَّظَرِ في مسألةِ يوسفَ عليه السلام. وقد كانَ بالإمكانِ أنْ يُعْطِيَهُ لحظةً عابرة مِقدارَ حاجتِه إلى كلمةٍ تَخْرُجُ مِنْ فمِه إلى تابِعِه ليقولَ له: أدِّبْهُ، أوْ عَلِّمْه، أوْ دَرِّبْه، أو أزِلْ شَعَثه.

إلا أنه أخَذَ به إلى خاصَّةِ بيتِه، إلى حيثُ يزِنُ كلامَه ويُوثِّقُه إلى امرأتِه التي يختَلِف الخِطابُ معَها اختلافاً شديداً، عَنْ خِطابِه للآخرين.. ويَطْلُبُ منها أَنْ تَهْتَمّ به اهتماماً خاصاً، مُسْتَعْمِلاً عباراتٍ لا تُقالُ إلا لذَوِي الأهمية.. أكْثرُ مِنْ ذاك: هو لم يطْلُبْ منها أنْ تسْتَعْمِلَهُ في خِدْمَتِها، أو أنْ تستفيدَ من وجودِه للعملِ الشاقِّ في مَنْزِلها، بل طلبَ منها أنْ تَرْفَع مِنْ شأنِه، وأنْ تُكْرِمَ مقَامَه، وأنْ تُعْلِيَ من منزِلتِه. إنه صعودٌ يُديرُ الرؤوسَ ويَجْلُبُ الدُّوَار.

ثم تتابعُ الآيةُ: **﴿عسى أنْ يَنْفَعَنا أو نتّخِذَهُ ولداً وكذلك مَكَّنّا ليوسفَ في الأرض﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تدَرُّجِ العزيزِ في نَظْرتِه إلى يوسفَ عليه السلام. وهو تدرّجٌ تصاعدي فقد بدأ أولاً عند اختيارِه ليوسفَ في السوقِ وشرائِه له، ثم انتقَل

ثانياً إلى إبداءِ الاهتمامِ بهذا الغلامِ واختصاصِه لهُ بالعنايةِ والرِعاية، بأنْ أدْخَلَهُ بيتَه، ثم ازدادَ اهتمامُه به بأنْ عهِدَ إلى زوجتِه، لكي تُكْرِمَ مثْوَاه، ثم انتقلَ بعدَ ذلك إلى التصريح القولِيِّ، بأنْ قالَ: ﴿عسَى أنْ يَنفعَنا﴾ ثم بَلَغَ الذُّرْوَة في التعلُّقِ به، بأنْ قال: ﴿أوْ نتّخِذَهُ وَلَداً﴾.

اللطيفة الثانية: في قولِه: ﴿عسَى أنْ يَنْفَعَنا﴾.

ولقد تُصيبنا الدهشةُ حين نتساءَلُ: كيفَ لعزيزِ مصْرَ ومُتولِّي شؤونها، أنْ ينتفَع منْ هذا الغلام؟ أمن مالٍ يَجنِيه، وهو الذي يُوَزِّع المالَ على الناس. أمْ مِنْ جاه يُدْنيه؟ وهو الأقْرَبُ مِنَ الملِك؟ أم مِنْ خوفٍ على شيْبَةٍ عاثِرَة؟ وهو الذي تَتَداعَى الطَّبقاتُ العُلْيا في المجتمعِ لخِدْمَتِه، فكيفَ بعامَّةِ النَّاس؟

والحقيقةُ هي أنّ العزيزَ رأى ما لم يَرَهُ سِوَاهُ، لقد رأى في يوسفَ عليه السلام، نباهَةً وتوقُّداً، رأى فيه شيئاً يَخْتَلِفُ عن أتْرابِه، ولقد يعْسُرُ على المرءِ أحياناً أنْ يَصِفَ مدى التأثُّرِ الذي تَرَكَهُ الشّخْصُ الآخرُ في نفْسِه، وهو ما يُعْرَفُ في علمِ النفس، بقوةِ التأثير، حتى دونَ الاستعانَةِ بقوةِ المَنْطق ومَحَجَّةِ الكَلام، ونحن حتى هذه الآية، لم نسْمَع يوسفَ عليه السلام، قد نطَقَ بقولٍ ذي بال، ما خلا حِوارَه معَ أبيه يعقوبَ عليه السلام، حَوْلَ رُؤْياه.

وقوةُ التأثيرِ هذه، مِنَّةٌ ربّانيّةٌ يختصُ بها الله تعالى مَنْ يشاءُ مِنْ عبادِه، ليسَ فقط مَنْ صَلَحَ قَلْبُه وصَفتْ سريرتُه، بل إننا نعْرِفُ منَ الناسِ من استغَلَّ هذه المِنّة، فأعْملَها في أبوابِ الشَرِّ، وما أمْثِلَةُ المشعوذينَ والدّجّالِينَ ومُدَّعِي النبوةِ عَنّا ببعيدة.

اللطيفة الثالثة: في قولِه: ﴿أوْ نَتّخِذَهُ ولَدا..﴾

فإننا نَلْحَظُ في الصِيغةِ التي وَرَدَ فيها قولُه، محاولةً لإشراكِ زَوْجِهِ في تعَلُّقِه بيوسف، وهو بذلك يُحاوِلُ الاطمئنانَ إلى ضمانِ اهتمامِ زوجتِه بتربيته. فلو

قالَ: لعَلَّهُ ينفعني أو أتخذَهُ ولدا، لما كانَ ضمن بذلك اندفاعاً لديها في حُسنِ التربية.. والقاعدةُ تقول: إحْذَرْ عملَ المدفوعِ، وارْتَحْ لعملِ المندفع..

اللطيفة الرابعة: في قولِ الله تعالى: **﴿وكذلك مَكّنّا ليوسفَ في الأرض﴾**. فهي إشارةٌ مضيئةٌ تجعلُ الآيةَ آيةَ انتقالٍ كُبرى في حياةِ يوسفَ عليه السلام. فلقد بدأتْ بكلمةِ وكذلك، وهي مُقْحمةٌ للدِّلالةِ على تأكيدِ فخامةِ شأنِه، ثم أعْقبها فِعلُ التمكِين: **﴿وكذلك مكّنّا﴾**. وهي كرامةٌ عُلْيا، حَملَتْ ليوسفَ عليه السلامُ الطُمأنينَة بأنّ الله تعالى معَهُ، حيثما كان، وفي أيِّ موقفٍ كان.

ثم تَنْتَهِي الآيةُ بقولِ الله تعالى: **﴿ولِنُعَلِّمَهُ من تأويلِ الأحاديث والله غالبٌ على أمرِه ولكنّ أكْثَر الناسِ لا يعلمون..﴾**

في هذا الشطرِ الأخيرِ من الآية، نتأمَّلُ اللطائفَ التالية:

اللطيفة الأولى: في قولِه تعالى: **﴿ولِنُعَلِّمَهُ مِنْ تأويلِ الأحاديث﴾** فنحن نَلْحَظُ أنها المرةُ الثانيةُ منذُ بدايةِ السورة، التي يَذْكُرُ فيها الله تعالى اختصاصَ يوسفَ عليه السلام، بخاصَّيّة تأويلِ الأحاديث، وهي ستكونُ إحدى معالِم رسالتِه، علماً بأنه لم يستَعْمِلْها بعدُ، لأنه لم يحن الوقتُ بعدُ لاستعمالها.. وفي هذا تمهيدٌ جميلٌ للقارىء والمستمع في الأسلوبِ القصصيِّ، لكي يَرْتَقِبَ حَدَثاً خلالَ السِياقِ، يتعلّقُ بالرُّؤَى.

الإشارةُ الأولى، كانتْ في قولِه تعالى في الآيةِ السادسة: **﴿ويُعَلِّمُكَ من تأويلِ الأحاديث ويُتِمُّ نِعْمَتَهُ عليك﴾**.

اللطيفة الثانية: في الانتقالِ منَ الخاصِّ إلى العام، في إطلاقِ قاعدةٍ أبديةٍ تتناولُ صِفةً مِنْ صِفاتِ الله تعالى، وهي الغَلبة. فالله تعالى غَالبٌ في كلِّ زَمانٍ ومكان، وما شاءَ الله تعالى فهو كائنٌ لا مَحال. وجاءَتْ هذه العبارةُ في نِهايَةِ

الآية، لِتُذَكِّرَنا بأنَّ كُلَّ ما كانَ مِنْ شأْنِ تَدَرُّجِ يوسفَ عليه السلام، وما كان مِنْ عزيزِ مصرَ في تصَرُّفِه معه، كلُّه كانَ بتقديرٍ منَ الله تعالى ليُتمَّ أمْرَه. ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون.

ولا يفوتُنا في نهاية تأمُّلِنا لهذه الآية، أنْ نَسْتَخْلِصَ منها الإشاراتِ النفسيةَ التالية:

إنّ الفَراسَة أمرٌ مُؤكّدٌ في عِلْمِ النفس، مُفادُها إدراكُ الناظرِ قوةَ شخصيةِ المنظورِ إليه، واستشعارِه بتَميُّزِه عنِ الآخرين.

إنّ قوة التأثيرِ في الآخرين، هي مَعْلَمٌ مِنْ معَالِمِ الشخصيةِ عندَ بعضِ الناس، وهم يتَميَّزُونَ عَنْ أقرانِهم بما أُطْلِقَ عليه اليومَ مُصْطَلَحُ: الذّكاءِ العاطفي.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على مشيئة الله تعالى برفع من يشاء من عباده إلى أعلى مرتبة قد تخطر ببال. وذلك بقول: وكذلك مكنا ليوسف.

٢ - للدلالة بالآية عند حصول الصعوبات وتكاثر المرجفين الذين يسعون إلى حط المعنويات وتهبيط العزائم وذلك بقول: والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج:١٧]

تنتقلُ بنا الآيةُ الكريمةُ، أخي المؤمن، إلى مرحلةٍ جديدةٍ من مَراحِلِ قِصةِ

يوسفَ عليه السلام، بعدَ أنِ اسْتَقَر به المُقَامُ في قَصْرِ عزيزِ مِصْر، مَعَزَّزاً مُكَرّماً، يَلْقَى العِنايةَ والرعِايةَ في أَرفعِ مُسْتَوياتِها، ولم يُعْهَدْ إليه أداءُ عملٍ مِنْ أَعمالِ الخِدْمَة، بل عُهِدَ إلى الآخرين خِدْمَتُه، وأَفْضلُ ما يُقَدَّمُ للطفلِ اليافع: التدريبُ والتعليم؛ ولقد سهِرَ العزيزُ وحَرَصَ حِرْصاً شديداً على الاعتناءِ بتدريبهِ وتعليمِه، يُصدِّقُ ذلك قولُه في الآية السابقة: ﴿**أَكْرِمي مَثْواهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نتخِذَهُ وَلداً**﴾.

وهذه ظروفٌ نادراً ما تَلْتَئمُ في مصلحةِ طِفلٍ، يَحتاجُ إلى رعايةٍ وعِناية:

فمِنْ ناحيةٍ أُوْلى: تَوّفَرتِ المقوماتُ الماديةُ، بامتلاكِ العزيزِ مقاليدَ السُلْطَة التنفيذيةِ الفِعْلية، وسهولةِ تلبيةِ مطلبِهِ في إيجادِ أَفضلِ وسائل التربيةِ والتعليم.

ومِنْ ناحيةٍ ثانية: توفرتِ المُقَوِّمَاتُ المعنوية، برغبةِ العزيزِ في إعطاءِ يوسفَ عليه السلام، أفضلَ ما عِنْدَه، وقد وَقَعَ في قلبِهِ موقعاً حَسناً، واحَتلّ في نفسِه مكاناً عالياً.

ومن ناحيةٍ ثالثة: غيابُ المُنافِسِ ليوسفَ عليه السلام، إذا إنّ العزيزَ كانَ بلا أَولاد، مما مَكَّنَ يوسفَ من الحصولِ على كلِّ الاهتمام.

ومن ناحيةٍ رابعة: قابليةُ يوسفَ عليه السلام، لتَلَقِّي التدريبِ والتعليم، وقد حَبَاهُ الله تعالى بالخصالِ العَاليةِ الرفيعة، كما أَعْلَمَنا الله تعالى في بدايةِ السورة، من أَولِ نَشأَةِ يوسفَ عليه السلام، إذْ قال: ﴿**وكذلك يَجْتَبِيكَ ربُّكَ**﴾[1] وقولهُ تعالى: ﴿**ويُتِمُ نعمتَهُ عليك**﴾[2].

وهكذا، تدرَّجَ يوسفُ عليه السلام، يَنْهَلُ من علومِ عَصْرِه ما اَجْتمَعَ منها، دونَ أَنْ يُعَكِّرَ صَفوَ تَحْصِيلِهِ مُعَكِّر، ولقد شاءَ الله تعالى أَنْ تَمُرَّ هذه الحِقبةُ من حياتهِ دونَ

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٦].

(٢) [سورة يوسف، الآية: ٦].

شوائب، لاستحالةِ اجتماعِ التحصيلِ المتينِ مع المُكَدِّرَاتِ والمُنغَصّات إلى أنِ اكتملتْ فترةُ البناء، بدأتْ بعدها المرحلةُ التالية، التي نَحنُ في صَدَدِها.

يقولُ الله تعالى: ﴿ولمّا بَلغَ أشُدّهُ آتيناهُ حُكماً وعِلْماً﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قولِه تعالى: ولّما بَلَغَ أشُدّه، إشارةٌ جميلةٌ إلى تقسيم مراحلِ الحياةِ عندَ الإنسان، فما قَبْلَ الوصولِ إلى هذه النُّقطة، يكونُ الإنسانُ في مرحلةِ صعودٍ وبناءٍ على كافةِ الصُّعُد: **فعلى الصعيدِ الجَسَدِي**: تُتَابعُ الخَلايا تكاثُرَها في تطورٍ عَدَدِيّ، يستمرُ في الازديادِ إلى أنْ تصلَ إلى الرقم الذي حُدِّد لها مُسَبّقاً في لوحةِ التحكُّم الموجودةِ في الصبغياتِ الوراثية داخل كلِّ خلية ولقد اجتهدَ بعضُ العلماءِ فأَحْصَى مائةً وخمسةً وعشرين ألف مليار خلية والله تعالى أعلمُ بما خلقَ وأوْدَع.

سبحانَ الله! كيفَ لها أَنْ تحصيَ عَدَدها، فتتوقّفَ عنِ التكاثِر التَّصَاعُدِي، لتنتقلَ بعدَهُ إلى التكاثرِ الأُفقي، أي تُجَدِّدُ في الخلايا، مَعَ إبقاءِ الرقمِ ثابتاً؟

هُوَ الله الذي أَحْسنَ كُلّ شيءٍ خَلَقه. سبحانَ الله! **﴿أفي الله شَكٌ فاطرِ السماواتِ والأرض﴾**(١).

وعلى الصعيد الفِكري: تُتَابعُ خَلايا الدِماغ تَطَوَّرها الوظيفي، وذلك بِمَدِّ الجُسورِ فيما بينَها، وكُلَّما كانَ عددُ الجسورِ أكْبر، كلما كان النضوجُ الفِكرِيُّ أَعْلَى وأوْثَق.

وعلى الصعيدِ البدني: تُصبحُ القوةُ العضليةُ في ذُروةِ نَشَاطِها، فَتستفيدُ مِنْ تَدافُعِ الحركات والرياضة، فتنمو الأَجزاءُ العضليةُ في أَماكنِ التحميل العالي مِنَ

(١) [سورة إبراهيم، الآية: ١٠].

obeikandi.com

الجسم، فيما تَبْقَى الأَجزاءُ العضليةُ الأُخرى التي تؤدِّي مَهام مُحَدّوةَ، صغيرةً نحيلة، وهذه أيضاً دلالاتٌ دامغةٌ على حُبِّ الله تَعالى لخلقِه، بأَنْ أوْجَدَ لهم في أَجسامِهم أَفْضَلَ تناسقٍ يَزْجونَه.

وعلى صعيدِ حِفْظِ النَّوْع: تَنْضج خَلايا التناسُل، وهي لم تَكُنْ قد نَضِجَتْ مِنْ قَبْلُ، رُغْمَ وُجودِها منذُ الوِلادة، منتظرةً دوَرها في هدوءٍ وسَكِينة، حتى إذا ما وَصَل الجسمُ إلى مَا أسْمَاهُ الله تعالى بُلوغَ الأَشُدِّ، تَحَركَتْ بانضباطٍ شديد، بموجَبِ برنامجٍ بديع، دونَ تَدافُعٍ أوِ اختلاف، لتؤديَ مهمتها على أَكْملِ وَجْه.

فلا نَعْجَبُ بعدَ كلِّ هذا، حينَ نَجِدُ أنّ القرآنَ الكريمَ أوْجَزَ كلّ هذا التطورِ في كلمتين ٱثنتين: ﴿**ولمّا بَلَغَ أَشُدّه**﴾.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿**آتيناهُ**﴾.

ولقد سبقتِ الإشارةُ في تأمُّلاتِنا السابقة، إلى أنّ الأُسلوبَ اللُّغويَ في القرآنِ الكريم يتكلّمُ عن الذات الإلهيةِ بصيغةِ الجمعِ في بعض المواضع، وهو بهذا يُفيدُ التعظيم، إلا أنه حين يكونُ الموضوعُ يتناولُ العقيدةَ والتوحيد، فإنّ الله تعالى يتكلّمُ عن ذاتِه العليّة بصيغة المفرد، لخطورةِ المبحثِ، ولما لمسألةِ التوحيدِ من أَهميةٍ قُصْوَى في حياة الإنسان، بل هي الفصلُ بين النّجاةِ والهَلاك. كمَثَلِ قولهِ تعالى: ﴿**إنني أَنا الله لا إِلَه إلا أَنا فاعْبُدْني وأَقِمِ الصلاةَ لِذِكْرِي**﴾[١].

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: ﴿**آتيناهُ حُكْماً وعِلْماً**﴾.

فإننا نُدْرِكُ أَنّ الله تعالى إذا ٱخْتَصّ عبداً مِنْ عِبادِه، بمِنّةٍ دونَ غيرِه، فإنّ هذه الصفة، تَفوقُ ما اجتمعَ عليه الناسُ منَ العلمِ والتعلّم المُتَعارَفِ بينَهم مِنْ علومِ الدنيا، دونَ أَنْ تُلْغِيَهَا، وتُمَكِّنُ حامِلَها مِنْ إفادةِ الناسِ إفادةً تفوقُ أَقرانَه الذينَ دَرَسُوا مِثْلَه علومَ الدنيا.

---

(١) [سورة طه، الآية: ١٤]

والمقصودُ في قولِه تعالى: ﴿**آتيناهُ حُكْماً وعِلْماً**﴾، أنه أَعْطَى يوسفَ عليه السلامُ الحِكْمَةَ في القولِ والفِعل، فلا يقولُ إلا كلاماً طيباً، وكلاماً ذكياً، ويَزِنُ الأُمورَ بميزانٍ صائب، ولا يَلْغُو الشيطانُ في أفكارِه، ولا يَتْرُكُ لوسوستِه عليه سلطاناً، ويُصْلِحُ بينَ الناسِ فيما اخْتَلَفوا فيه، ويشُيرُ إلى الأَصلحِ في أُمورِهم، ويُرْشِدُهم إلى ما يُفيدُهم، ولا يَضِنُّ على الأخرينَ بالمعرفة، ولا يَنْظُرُ إلى مصلحتهِ الشخصيةِ في حُكْمِهِ على الأشياء، ويَرْقُبُ الله تعالى في كلِ حركةٍ أو سَكَنَة، وبالإجمال، كل ما يرضاه الله تعالى منْ تصرفٍ وتَدَبُّر.

والمقصودُ مِنَ العلم، أنّ الله سبحانَه وتعالى اَخْتَصّ يوسفَ عليه السلامُ، بعلمٍ غيبي، سَنَعْرِفُ لاحقاً أَنه عِلْمُ تَأْويلِ الرُّؤى، وهو علمٌ أَرَفَعُ وأَرْقى مِنَ العلومِ التي تُدْرَسُ في الصحفِ والكُتب، ويَحتاجُ حكماً إلى قواعدَ ونُظُمٍ لا يُدْرِكُها كلُّ الناس، ولا تَحْصُلُ إلا بتأييدِ الله تعالى، وهذا ما سيكونُ المعلمَ الرئيسيَ في رسالتِه، ما سَيَفْتَحُ له أَبواب المجدِ لاحقاً.

ثم تنتهي الآيةُ بقولِ الله تعالى: ﴿**وكذلك نجزي المحسنين**﴾.

فإذا بنا نُلاحظ أنّ هذه الصِفَة سُتلازِمُ يوسفَ عليه السلام، منَ الآنَ فصاعداً، على مدارِ القِصةِ بكاملِها، وستتكررُ في السورةِ في خمسةِ مواضعَ مختلفةٍ، في ظروفٍ مختلفة؛ وصَفهُ الله تعالى بها، ووصفَهُ مِنْ جَهْلِهِ بها، ووصفه إِخوتُه بها، ووَصَفَ نفسَه بها، فإذا بها مِنْ أَجمل الصفات: أنْ يكوَن الإنسانُ مُحْسِناً، هو أَنْ يَرْقَى إلى درجةِ الإِحسان. وكما نعلم، فإنّ الإِحسانَ في الدينِ مرتبةٌ أَعلى منَ الإِيمان، مِصْدَاقُ ذلك في حديثِ جبريَل عليه السلام إلى رسولِ الله ﷺ، حين سأله عن الإِحسانِ فقال: «**أنْ تَعْبُدُ الله كأنك تراه، فإنْ لم يَكُنْ تراهُ، فإنه يراك**».

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - حين يقوم الإنسان دائماً داعياً لغيره، وخصوصاً لولده، أن يهبه الله تعالى الحكمة والعلم الوفير، فله أن يستشهد بقوله تعالى: ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾.

٢ - للدلالة على وجوب اقتران طلب العلم بطلب الحكمة فنذكر قول الله تعالى: ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ١٨]

نصلُ معاً أخي المؤمن، إلى فصل جديدٍ مِنْ فصولِ قصةِ يوسفَ عليه السلام، تبدأُ معه مراحلُ محنةٍ جديدةٍ قاسية، سَيُمرُّ به، وسنشهدها معاً.

وقبلَ أنْ نبدأ بتأَمُّلِ الآيةِ الكريمة، نُلاحِظُ أَنّ هذه الآيات موضوعَ تأمُّلِنا، تختلفُ في أُسلوبِها عمّا اَعْتَدْنَا عليه في السُّورِ الأُخرى منَ القرآنِ الكريم، حيثُ نَجِدُ أَنّ طابعَ التفصيلِ في دخائلِ الحياةِ الاجتماعية، يَظْهَرُ واضحاً معَ كلِ مرحلةٍ منْ مَراحِلِ قصةِ يوسفَ عليه السلام. وهذا الأمرُ يَرْجِعُ إلى خصوصيةِ هذه السورة، وتوقيتِ نُزولِها والزّخمِ القَصِصيِّ والنفسيِّ الواردِ فيها. وهي إنْ حصلتْ فُصولُها مَعَ يوسفَ عليه السلام، فإنّ حركةَ النفسِ الإنسانية، تَدورُ على محاورَ مُشَابِهَةٍ عندَ كلِّ الناسِ في تَقَاطُعِ دُروبِهم وَتَفاعُلِها فيما بينَهم، والمطلوبُ من كلِّ واحدٍ منا، أنْ يأْخُذَ العِبرةَ ويَقْتَدِيَ بالقُدْوَةِ الحسنة، في تَفاعُلِه مَعَ الأحداث وفي مَسْلَكِه الحياتي.

يقولُ الله تعالى: ﴿وراودَتْهُ التي هُوَ في بيتِها عَنْ نفسِه﴾.

في هذا الشَّطْرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قوةِ التصويرِ الأدبي، التي سَاقَتْها هذه الكلماتُ حَوْلَ الوضعِ النفسيِّ الذي تَحْيَاهُ ٱمرأَةُ العزيز.

فلقد علمنا أَنّ العزيزَ دَفَعَ إِليها بيوسفَ، وهو بعدُ حَدَثاً يافعاً، وطلبَ منها أنْ تَهْتَمّ بهِ وبتربيَتهِ وتعليمهِ وتَنشِئَتِه، فإذا بها تَرى عَنْ كثبٍ ليس فقط جَمالَ وجههِ، وحُسْنَ شَبابهِ، بل عايَنت جمالَ نفسِه وأدبَه وأَخلاقَه، وقد تَعَهّدَهُ الله تعالى بالحفظِ والصونِ، وأَوْدَعَ فيه من الخِصالِ التي تُهَيِّؤُهُ لكي يكونَ مِنَ المُصْطَفَيْنَ الأخيار، وهذه الصفاتُ لا يَدَ للإِنسانِ فيها، ولا دَوَر للصّقْلِ والتهذيبِ فيها، بل هي تَنْطِقُ عَنْ نفسِها، وتَفْرِضُ وجودَهَا حتى على المُؤَدِّب وٱلمُهذِّب، فإذا بها تعيشُ صِراعاً داخلياً عنيفاً، بيَن مُهِمّتِها الأساسية التي عَهِدَ إِليها العزيزُ بقولِه: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنا أو نَتّخِذَهُ وَلداً﴾[1] وبين ما تشعرُ به مِنَ ٱنجذابٍ نحوَ يوسفَ عليه السلام، وكانتِ الحصيلةُ أَنْ غلبَ عليها دافعُ الانجذابِ، فإذا بها تُراوِدُهُ عَنْ نفسِه.

نَسْتَخلصُ من هذه الآيةِ مباشرةً، قاعدة من قواعدِ علمِ النفس، وهي التالية: إنّ تَنازُعَ العواطفُ يَنْتَهِي حَتْماً إِلى غَلَبةِ إِحْدَاهَا عَلَى الأُخرى والغلبةُ تكونُ للعاطفةِ التي تَغذّتْ أَكْثَر، إِما بطولِ اعتيادٍ، أو بعواملَ طارِئة.

اللطيفة الثانية: في ملاحظةِ عدمِ ذِكْرِ ٱسمِ ٱمرأةِ العزيز، ولا حتى صفتِها، ولا نجدُ في هذا الإِغفالِ أَيَّ إِبهام، بل هو سِياقُ القِصةِ الذي يُعْلِمَنا بها، وبالمقابل فقد جاءَ وَقْعُ كلماتِ الآيةِ في الأُذنِ إِنسيابياً على وتيرةٍ هادئة، أَعْطَتِ الآيةَ في مَبْنَاها مَوْقِعاً مُتَوازِياً مَعَ ما يَحْمِلُه مِنْ معنى.

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٢١].

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِنا للمعاني الضِمنيةِ التي تَسوقُها الآيةُ في قولِ الله تعالى: **﴿وراودَتْهُ التي هو في بيتِها﴾**، وهي إِشارةٌ تُوصِلُنا إِلى فَهْمِ مدى الإحراجِ الذي وَقَعَ فيه يوسفُ عليه السلام.

فهو لم يَذْهَبْ برجليهِ إِلى مكانٍ فيه شُبْهَة، ولم يُسْتَدْرَجْ إِلى مكانٍ بعيد، بل جاءَتْهُ المِحْنَةُ إِلى مكانِ إِقامتِه، وهو آخرُ مكانٍ يُمْكِنُهُ اللجوءُ إِليه.

والتي راودَتْه عَنْ نفسِه، هي سيدةُ القَصْر، وليستْ أَيةَ سيدةٍ فيه، وهي التي في الأَصْل، تَضْبِطُ حركةَ كُلِّ العاملينَ فيه.

والتي رَاودَتْهُ عَنْ نفسِه، تَحْمِلُ صفةَ الإِمْرَةِ عليه، وفي ظَنِّها أنّ التراتبية تَفْرِضُ عليه الانصياعَ وعدَم الرفض.

ولو أَننا سَمِعْنا: وَراوَدَتْهُ آمراةُ العزيز عن نفسِه؛ لَما بَرَزَتْ هذه الحقائقُ في الأذهانِ ساطعة، كما يُبْرِزُها قولُ الله تعالى: **﴿وراودَتْه التي هو في بيتِها عن نفْسِهِ﴾**.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿وغَلّقَتِ الأَبوابَ وقَالَتْ هَيتَ لك﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة.

اللطيفة الأولى: في دِقّةِ التعبيرِ القرآنيِّ في كلمة: **﴿وغَلّقَتْ﴾**، فجاءَتْ مُشَدَّدَةً، وهي أَكْثَرُ مِنْ مجردِ إِغلاقِ باب بل هي إِحكامُ إِغلاقِ الأَبوابِ، ولو قُلْنا: أَغلَقتِ الأَبواب، لكانَ إِغلاقاً عادياً، قد يُمَكِّنُ مَنْ هُوَ في الخارج، أنْ يَفْتَحَهُ، أمّا في قولِه تعالى: **﴿وغَلَّقتِ الأَبواب﴾**، فإنّ الصُورةَ التي تَرْسُمُها الكلمة: إِعمالُ الجُهْدِ في إِحكامِ إِغلاقِ الأبوابِ بحيث لا يُمْكنُ لمن يُريدُ الدخولَ أن يدخل والحقيقةُ أَنّ هذا ما حصل، كما سنرى في لاحقِ الآياتِ فإِنّ أحداً لم يستطعِ الدُّخولَ، ولا حتى العزيز الذي وَقَف عندَ البابِ مَحْصوراً خَلْفَه. فانْظُرْ أخي المؤمن، إِلى دقةِ القرآنِ في الوصف.

اللطيفة الثانية: في قولِهِ تعالى: **﴿وغَلّقَتِ الأَبوابَ﴾**، وهذه إشارةٌ فائقةٌ إلى عَزْلِ الصوتِ إضافةً إلى عَزْلِ الرُّؤية. فلو أنها أَغْلَقَتْ باباً واحداً، لحجَبتِ الرُّؤية، ولأَمْكَنَ للصوتِ أنْ يُسْمَعَ مِنْ خَلْفِ البابِ الواحدِ أمّا بتَعَدُّدِ الأبوابِ التي تَفْصِلُ بينَها طبقاتُ الهواءِ، فإنّ العزلَ للصوتِ يكونُ كاملاً. وهذا هو المبدأُ المعتمدُ في أيامِنا الحاضرةِ، لعزلِ الصوت، فكانَتْ مِنَ النباهةِ بمكانٍ في احتياطِها حتى مِنْ سَماعِ أيِّ صوت.

اللطيفة الثالثة: في قولِ الله تعالى: **﴿قالتْ هَيتَ لك﴾**.

هنا أيضاً، تَتَجَلّى قاعدةٌ أُخرى من قواعدِ عِلْمِ النفس. وهي: الطلبُ بالإيماءِ. ومُفَادُها: عدمُ التصريحِ المباشِرِ بالمَطْلَب، ولكنْ القيامَ بأفعَالٍ أَو أقوالٍ جانبية، تَحْمِلُكَ على التحليلِ والتفكيرِ، وتُوصِلُكَ بالنتيجةِ إلى فَهْمِ المرادِ بالاستنتاج. وهكذا، فحينَ أغلقتِ امرأةُ العزيزِ الأبوابَ على مرأىً مِنْ يوسفَ عليه السلامِ، ثم **﴿قالَتْ هَيتَ لك﴾**، فكأنَّما أرادتْ أنْ تقولَ له: أنتَ مَنْ يُريدُني، وقد تَهيَّأْتُ لك. فَفَطِنَ يوسفُ إلى مرادِها سريعاً، وأجابَها مباشرةً: **﴿معاذَ الله﴾**.

اللطيفة الرابعة: في تأمُّلِنا لهذا التدرجِ في الوصف، الذي ساقَتْهُ الآيةُ الكريمةُ في الإعدادِ المتقنِ الذي هَيّأَتْهُ امرأةُ العزيز، للوصولِ إلى مُبْتَغَاهَا.

فقد بدأَتْ بمُراوَدَتِه عن نفسِه، وهذا لا يُعتبرُ تصرفاً مَادِّياً مؤكّداً، ولا يأْخُذُه يوسفُ على مَحْمَلِ الجِدِّ، ثم تدَرّجَت بالتصرُّفِ الماديِّ بأنْ أَغلقتِ الأَبواب، ثم تَدَرّجَتْ إلى التصرُّف القَوْلِيِّ، بأنْ تَكَلّمَتَ علناً.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿قال معاذَ الله إنه رَبِّي أَحْسنَ مثواي إنه لا يُفْلِحُ الظالمون﴾**.

وفي هذا الشطرِ الأخيرِ من الآية، نتعرّفُ إلى مَعالَمَ أُخرى في شَخصيةِ

يوسفَ عليه السلام. وهي معالمُ مُشَرِّفَةٍ، تَتَبَدّى لنا في سُرْعَةِ رَدِّ فِعْلِهِ، مُقَدِّماً طاعةَ الله تعالى، عن كلِ الاعتباراتِ الأخرى، فلقد تَجَاوَزَ كُلَّ المخاوفِ والحساباتِ والتوقُّعات، وأَعلنَ بجزمٍ وقوة، أنّ ما تَطْلُبُهُ منه، مخالفٌ لأمر الله تعالى. فكانَ رفضُه جَازماً باتّاً، وكَانَ رفضاً مُعلِّماً لنا كيفيةَ التصرُّفِ حِيالَ الدعوةِ إلى ما يُغْضِبُ الله تعالى.

وإذا ما تأمّلْنَا بعمقٍ حالَ يوسفَ عليه السلام، في تلكَ اللحظات، نجد:

أنه في ظاهرِ الحال، محبوسٌ في غرفةٍ مغلقة، ويبدو وكأنه الطَّرَفُ الضعيفُ، فقد اشْتُرِيَ في صغرِه، ثم رُبِّيَ في بيتِ العزيز أحْسنَ تربية، وأُنْفِقَ عليه الكثير، بما يَسْتَوْجِبُ أنْ يتركَ لديه شعوراً بالامتنان، ثم إنه رُغْمَ تربيتِهِ المُمَيّزة، لم يُرَقَّ إلى رتبةٍ أعلى من رتبةِ تلقيِّ الأَوامرِ خصوصاً من سيدةِ القصر.

إلا أنه في الحقيقة، أعلى وأقوى من ذلكَ بكثير: فهو أولاً، ابنُ يعقوبَ نبيُ الله عليه السلام، وهو يَعْرِفُ تماماً مَنْ هو، وهو الذي جاءتْه البَشائِرُ الربانيةُ بالحفِظِ والصَّوْنِ، وهو الذي مَيَّزَهُ الله تعالى بالحكمةِ والعِلْم، وهو عبدُ الله الذي جَعَل رِضَى الله تعالى هَمّهُ، فإذا كان يوسفُ عليه السلام، يعَيشُ في داخلِه هذه الأجواء، فأَنّى لِمَا يَحْدُثُ أمامَه أَنْ يَجْتَذِبَهُ نَحوَ الأَسفل؟

وعلى الرُّغْمِ منَ الأَخطارِ التي قد يَتعرّضُ لها، فهو لم يَتردّدْ لحظةً واحدةً في جوابِهِ ﴿**فقال معاذَ الله إنه رَبِّي أَحْسن مَثواي إنه لا يُفْلِحُ الظّالمون**﴾.

وفي هذا الشطرِ من الآية، توضيحٌ لما سَيرِدُ في اللاحقِ منَ الآيات.

ودحضٌ لما قد يُشْكِلُ على البعضِ في فَهْمِ هذا الحدث، وسنتطَرّقُ إليه لاحقاً إنْ شاءَ الله.

مواطن الاسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على خطر الإختلاط المحدق بالفتيان والفتيات وللرد على القائلين أن الإختلاط لا يؤدي إلى وقوع الفاحشة.

٢ - لتحفيز الشباب على تقوية وسائل المقاومة لأحوال الأغواء التي قد يتعرضون لها في مختلف مراحل حياتهم على متفرقات دروب حياتهم، خصوصاً في بلاد الغربة حيث الوحدة والوحشة والمغريات، وذلك بجعل عبارة «معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي» حاضرة دائماً في أذهانهم وعلى ألسنتهم، وتعميق فهمهم لمعناها، واستحضار ظروف ومعاني نِعم الله تعالى عليهم بصورة شخصية فردية.

٣ - لحث الشباب على عدم التواجد في مواقف محرجة لهم قد تؤدي بهم إما إلى الاتهام بالأغواء. كما حصل ليوسف عليه السلام وإما إلى الانجرار إلى الغواية بفعل ظروف عدم إحصانهم بالزواج.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ١٩]

تتوالَى، أخي المؤمن، أَحداثُ المشهدِ الثاني مِنَ الفصلِ الثالثِ مِنْ قِصةِ يوسفَ عليه السلام، وقد رأَيْنَا في تأمُّلِنا للآيةِ السابقة، كيفَ بدأَتْ عنَاصِرُ المِحنةِ الجديدة، تَتَكامَلُ، فإذا بِنا مَعَ هذه الآية في ٱستعادةٍ للأحداثِ بتفصيلٍ أَكْبر، مِنْ زاويةٍ أُخرى، تمشِّياً مَعَ أسلوبِ السردِ الخاصِ بالسورة، المتميِّزِ عَنْ باقي السور، المتميز حتى في ظروفِ التنزيلِ القرآني.

يقولُ الله تعالى: ﴿ولقد هَمّتْ به﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في ابتداءِ الآية بحرفِ العطف، وسنجدُ أخي المؤمن، أنّ هذه الآية حوَتْ مِنْ دَقائِقِ اللُّغةِ العربية، ما يَنْبغي على المرءِ أنْ يُدْرِكَهُ تَمامَ الإدراك، منعاً عليه مِنَ التباسِ المعنى.

فوجودُ حرفِ العطفِ في أولِ الآية، إعلامٌ بٱستمرارِ سَرْدِ الحدثِ ذاتهِ الحاصلِ في الآيةِ السابقة، أي مُراوَدَةِ ٱمرأةِ العزيزِ يوسفَ عليه السلامَ عَنْ نَفْسَهِ، وتَدَرُّجِ المراودةِ بصورةِ تَصاعُدِيّة، كما رأَيْنَا، من مجردِ التلميح، إلى مؤكّدِ التصريح وجاءَتْ هذه الآيةُ، بعَطْفِها على الآيةِ السابقة، لتوضحَ لنا أَنّ الحدثَ هو واحد، ولكن وردَ هنا بتفصيلٍ أكْثَرَ، حين أَشارتِ الآيةِ إلى أنها دَعَتْهُ إلى نَفْسِها.

أهميةُ هذا الفهم، تَتجلّى في مَنْعِ الذِهنِ مِنَ الوقوعِ في خطأ ٱحتسابِ التّسَلْسُلِ الزمنيِّ للأَحداث، وهو ما وَقَعَ فيه كثيرٌ مِمّنْ نَظَرَ في هاتين الآيتين، وسأُوجِزُ كيفَ يقَعُ الخطأ: نقرأُ في الآيةِ الأُولى، أنَّ امرأةَ العزيزِ راودَتْهُ عَنْ نفسِها، ثم أَغلقتِ الأَبواب، ثم قالتْ هَيْتَ لك، ثم أَجابَها مباشرةً: معاذَ الله. فإذا ما ٱنتقلَ القارئُ إلى الآيةِ الثانية، خُيِّلَ إليه خطأً أنَّ حدثاً جَديداً يحصُلُ، حينَ يقولُ الله عزّ وجل: **﴿ولقد همَّتْ به﴾** والصحيحُ أَنّ الآيةَ الثانية، تفصِّل الآيةَ الأُولى، لأنّ عَناصِرَ الحدثِ كانَتْ قد ٱكْتَمَلتْ عندَ قولِ يوسفَ عليه السلام: معاذَ الله، مُنْهِياً تطورَ الأَحداثِ مباشرةً، فلا يَصِحُّ أَنْ نَظُنّ أَنّ حدثاً مماثلاً جديداً بدأ وإنما يَصحُّ أَنْ نفهم أن تفصيلَ الحدثِ ذاتِه، حاصلٌ في الآيةِ موضوعِ تأمُّلِنا اليوم.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿ولقد﴾** ونحن نَعْلَمُ أَنّ وُرودَ هذا الحرفِ

قبل الفعل الماضي يُفيدُ التأكيدَ والتحقيق. فلقد شاءَ الله تعالى أَنْ تبدأَ الآيةُ بإثباتِ حصولِ الهَمِّ مِنْ جِهَةِ امرأةِ العزيز، بصورةٍ مُحَقَّقَةٍ مؤكّدة.

اللطيفة الثالثة: في وُقوفِنا عندَ تطوُّرِ الحالِ النفسيةِ عندَ امرأةِ العزيزِ، وقد عَلِمنا أَنها سيدةٌ ذاتُ شأنٍ في بلدٍ عظيم. وأَنها مَحطُّ أَنظارِ نساءِ البلدِ بأَسرهِنّ، وأَنّ كُلّ خُطوةٍ منها، محسوبةٌ عليها. إلا أَنَّ انبهارَها بجمالِ يوسفَ عليه السلام، ومُراقَبتَها لِصفاتِه العالية، وانعدامَ الرّادعِ الدينيّ والخُلُقيّ، وكَثْرَة رُؤْيَتَها له، كلُّ هذه الأسباب، جَعَلَتْ عَاطِفَتَها تَتَضّخمُ إلى حَدِّ الأنفجار، فضربَتْ بكلِ المقاييسِ بعَرْضِ الحَائط، وفقدَتْ حُكْمَها على الأشياء، وعَمِيْت بَصِيرتُها، فلم تَعُدْ تَرى أَمامَها إلا الاندفاعَ لتنفيذِ رَغَباتِها. وإذا كُنّا اليومَ ننظرُ في حالِها النفسية، نعرفُ أنّ هذه الحال، تَكَرّرَتْ وتَكَرّرُ ملايينَ المرات، على مَرِّ الزمانِ على الأجيالِ المتعاقبةِ مِنْ بني آدم. وقد فَتحَ الله تعالى على الإنسان، في عَصْرِنا منْ فُتوحِ العلمِ ما مَكّنَهُ مِنْ إدراكِ آليةِ تطورِ مُكَوّناتِ الدمِ منْ إفرازاتِ الغُددِ الصَمّاء، وتحديدِ أنواعِ الهُرمونات، والموادِّ المُوجّهة، لتهييجِ العواطفِ أَو تثبيطِها مِمّا يساعدُ الفردَ مِنّا على فَهْمِ تَطَوُّرِ الأحوالِ النفسيةِ فيه، ويساعدُ بالتالي على التَّحَكُّمِ في النزعاتِ والأهواء، وهو مبحثٌ هامٌ لا يَتّسعُ له مَقامُ تأَمُّلِنا في الآيةِ الكريمة، وإنما نُشيرُ إليه من بابِ سَدِّ الذرائعِ والتناصُحِ في الله، وإبعادِ غوايةِ الشيطانِ عَنْ عِبادِ الله.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿وهَمَّ بها لولا أنْ رأى بُرهانَ رَبِّه كذلكَ لِنَصْرِفَ عنه السُّوءَ والفَحشاءَ إنه مِنْ عبادنا المُخْلَصينَ﴾**.

ولن نقفَ أخي المؤمن في هذا الشطرِ منَ الآية، إلا عندَ مُوجِبِ إزالةِ اللَّبْسِ عن سوءِ فَهْمٍ، وَقَع فيه كثيرٌ منَ الناس، في ظَنّهم بيوسفَ عليه السلام أنّ نَفْسَه حدّثَتْهُ بالتجاوُبِ معها؛ والحقيقةُ أني لم أَجِدْ آيةً كمثِلِ هذه الآية، أُحِيْطَتْ بالأَدِلّةِ المُتَدَافِعَة، منْ نَصِّ القرآنِ نفسِه، للتأْكِيدِ على بَراءَةِ يوسفَ عليه

السلام، مِنْ مُجردِ التفكيرِ بالتجاوبِ معها، وأسُوقُها بإيجاز ما ٱستَطَعْت:

الدليلُ الأول: في قولِ الله تعالى، في الآيةِ السابقةِ على لسانِ يوسفَ عليه السلام، بعدَ أنْ عَرَضَتْ عليه ما عَرَضتْ، وبصورةٍ مباشرةٍ وقاطعة: **﴿معَاذَ الله﴾**، أَي إنه إقصاءٌ كُلِّيٌ لأيِّ ٱحتمالٍ بالتفكيرِ في المعصية:

الدليلُ الثاني: ورودُ هذه الآية مباشرةً بعدَ آيةِ الاستعاذةِ بالله وهي تُعيدُ سَرْدَ الحدثِ، ولا تذكرُ حدثاً جديداً.

الدليلُ الثالث: لُغوي، في فَهْمِنا لقوله تعالى: **﴿وهَمّ بها لولا أَنْ رأَى برهانَ رَبِّه﴾** فلولا حَرفُ ٱمتناعٍ لوجود، تقول: لولا المطرُ لَخرجْتُ.. فالخروجُ ممتنعٌ لوجودِ المطر. فيكونُ المعنى في الآية الكريمة: لولا أنْ رأَى برهانَ رَبِّه لَهَمّ بها. فالهَمُّ ممتنعٌ لوجودِ رؤيةِ يوسفَ لبرهانِ ربِّه.

الدليلُ الرابع: يَتبّدى منْ أُسلوبِ السَرْد: فقد قالَ الله تعالى: **﴿ولقد همّتْ به﴾**، فيه تأكيدٌ لحصولِ الهَمِّ منها، ثم قال: وهَمَّ بِها لولا أَنْ رأَى بُرهانِ رَبِّه، فلم يَسْبِقَها تأكيدٌ لما حَصَلَ لجهةِ امرأةِ العزيز.

الدليلُ الخامس: في ٱمتداحِ يوسفَ عليه السلام، في سِياقِ الآيةِ ذاتِها، في قولِ الله تعالى: **﴿وكذلك لِنَصْرِفَ عنه السوءَ والفحشاء﴾**. وقد فَسَّرَ العلماءُ الفحشاءَ بجُرْمِ الزنا، وفَسّرُوا السوءَ بمُقَدِّماتِ الزِنا، أَي المراودةِ والهَمّ. فٱنْظُرْ أخي المؤمن إلى دِقَّةِ القرآنِ في التفصيلِ بينَ درَجاتِ المَعْصِية، وكيفَ أَنه نَزّه يوسفَ عَنها كُلَّها، ثم ٱنْظُرْ أخي المؤمن إلى قولِ الله تعالى **﴿كذلك لِنَصرِفَ عنه السوءَ الفحشاء﴾** فالله سبحانه وتعالى لم يقل **﴿كذلك لنصرفَهُ عن السوء والفحشاء﴾** فالسوءُ والفحشاءُ هي المصروفةُ عن يوسفَ عليه السلام. وهذا أبلغُ من أن يكونَ هو مصروفاً عنها.

الدليلُ السادس: منَ الآيةِ نفسِها، في قولِ الله تعالى عنه: **﴿إنه مِنْ عبادِنا**

المخلَصين﴾ والمخلَصُ غيرُ المُخْلِص. فالمخلِصُ هو الذي يَجْتَهِدُ مِنْ تَلِقاءِ نفسِه بتحصيل الإخلاص، أمّا المُخلَص، فهو الذي تَكفَّلَ الله تعالى بإيصالهِ إلى الإخلاص، ولا يُعقلُ أن يقعَ بعدَ تعهدِ الله تعالى بتخليصه، في المعصية.

الدليلُ السابع: من حصولِه قبلَ الحادثة على وِسام الإحسانِ، وقد قالَ عنه الله تعالى: **﴿وكذلك نَجْزِي المحسنين﴾** ولقد علَّمنَا رسولُ الله ﷺ، أنّ الإحسانَ هو أنْ تَعْبُدُ الله كأنَكَ تراه، ولا يَقْبَلُ أحدٌ منا أَنْ يقولَ: إنّ الإحسانَ فَارَقَهُ في هذه اللحظات.

الدليلُ الثامن: يأتينا في لاحقِ الآيات، مِنْ فمِ امرأةِ العزيز نفسِها في اعترافِها عندَ استرجاعِها للحدثِ إذْ تقول: **﴿ولقد رَاوَدتُهُ عَنْ نفسِه فَاسْتَعْصَم﴾**[١]، وقد كانَ بإمكانِها أَنْ تتشبّثَ ولو بحركةٍ واحدةٍ بَدَرَتْ منه، لِتُخَفِّفَ من شدةِ ذَنْبِها.

الدليلُ التاسع: فينا نحن الذين نقرأُ كتابَ الله تعالى، ونُصَدِّقُه، فحين نسمعُ يوسفَ عليه السلام، يقولُ في لاحقِ الآيات: **﴿قالَ هي رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾**[٢] وهو صادقٌ، ونحن نعلمُ منه ذلك، ولو كانَ بَدَرَ منه أيُّ تَصَرُّفٍ خاطئٍ لكانَ صَرّحَ به.

الدليلُ العاشر: في سَماعِنا، تَخوُّفَهُ عليه السلام، منْ أنْ يَحْصُلَ منه، ليسَ همَّاً، بل مَيْلاً، وهو أَقَلُّ بكثيرٍ مِنَ الهَمِّ، ومناجاتُه الله تعالى أنْ يَصْرِفَ عنه كيدَ النِسوة، إذْ قالَ فيما سَنَرى في اللاحقِ منَ الآيات: **﴿قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إليّ مما يَدْعُونَني إليه وإلا تَصرِفْ عني كَيدَهُنّ أَصْبُ إليهنّ وأَكُنْ مِنَ الجاهلين﴾**[٣].

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٣٢].

(٢) [سورة يوسف، الآية: ٢٦].

(٣) [سورة يوسف، الآية: ٣٣].